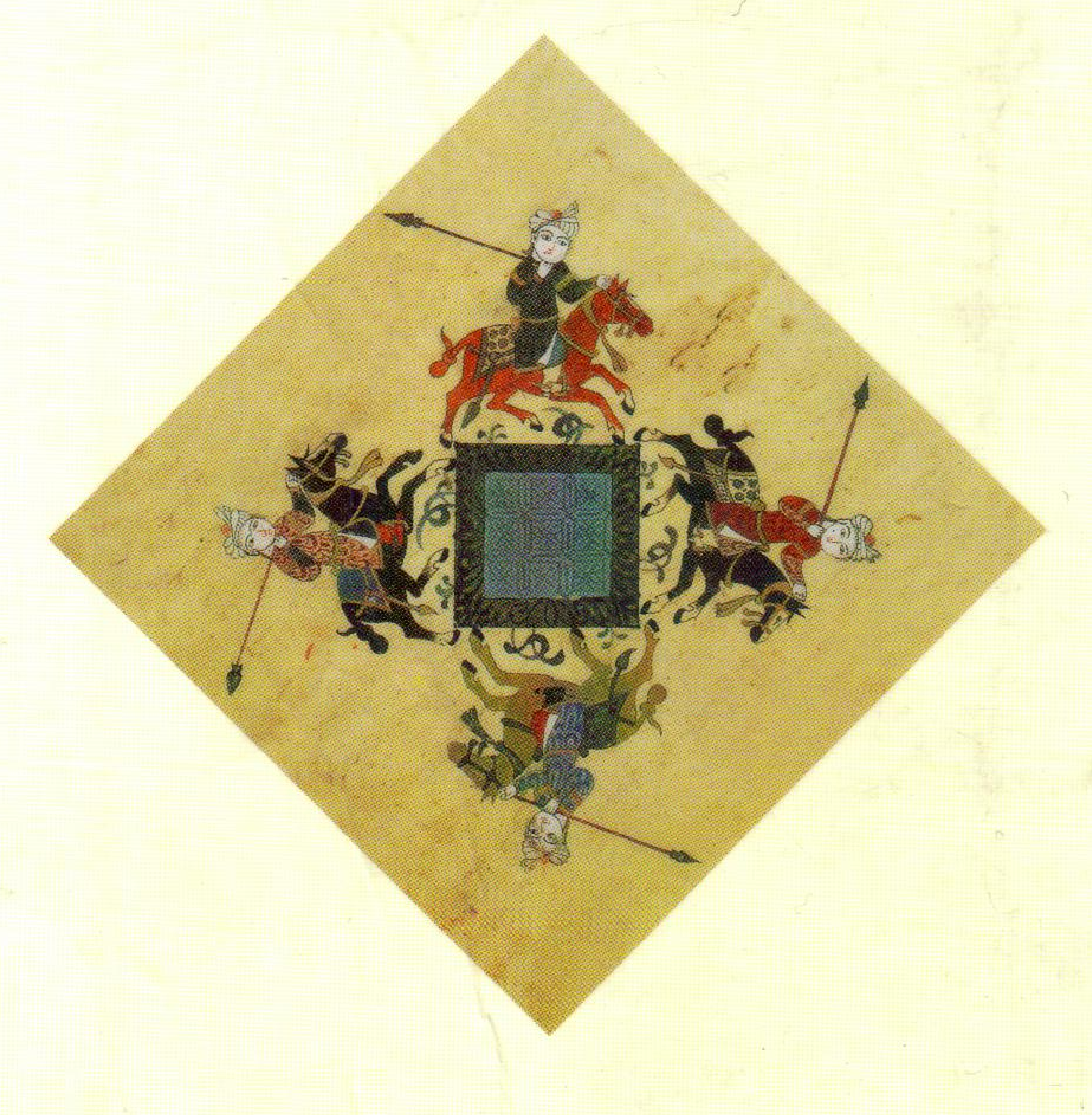
رشيد الخيّون

الأديان والمذاهب بالعراق

(طبعة مزيدة ومنقّحة)



منشورات الجمل

ولد رشيد الخيّون بالعراق-الجبايش. تخرج من معهد المعلمين- بغداد ١٩٧٥. حصل على شهادة البكالوريوس في الفلسفة من جامعة عدن ١٩٨٤. نال شهادة الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية من جامعة صوفيا ١٩٩١. مارس التعليم في المدارس الابتدائية ببغداد ١٩٧٥-١٩٧٩، والتدريس في المدارس الثانوية باليمن ١٩٧٩-١٩٨٨. أشرف على الدراسات العليا في الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية بلندن. كاتب مقال إسبوعي في جريدة «الشرق الأوسط». باحث في التراث الفكري والفلسفي الإسلامي. صدر له:

مذهب المعتزلة من الكلام إلى الفلسفة، دار النبوغ- بيروت ١٩٩٤؛ **تلخيص البيان في ذكر أهل الأديان** (تحقيق) دار الحكمة-لندن ١٩٩٤؛ **معتزلة البصرة وبغداد** (ثلاث طبعات) ١٩٩٧و١٩٩٩؛ **جدل التنزيل** (تاريخ خلق القرآن) منشورات الجمل-كولونيا ٢٠٠٠، **حروف حي، تاريخ البابية والبهائية**، منشورات الجمل - كولونيا ٢٠٠٣؛ **كتاب منداثي أو الصابئة الاقدمون** (تحقيق) دار الحكمة-لندن ٢٠٠٣؛ **المباح واللامباح** (فصول من التراث الإسلامي) دار مهجر-بوسطن ٢٠٠٥؛ **خواطر السنين.. مذكرات الدكتور محمد مكية** (تحرير) دار الساقي- بيروت ٢٠٠٥؛ **المشروطة والمستبدة**، مركز الدراسات الاستراتيجية، بيروت ٢٠٠٦.

رشيد الخيّون: الأديان والمذاهب بالعراق، الطبعة الثانية ٢٠٠٧

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

الفصل الأول

الصابئة المندائية

تقطن على ضفاف دجلة والفرات، وسط وجنوب العراق، وضفاف الكارون غرب إيران جماعة عرقية ودينية، تعايشت مع سكان المنطقة بسلام، ولعبت دوراً مهماً في عملية الإنتاج: صناعة القوارب، وآلات الحصاد، والحدادة، وصياغة المينا (النقش على الفضة). كانت تلك المهارات حكراً على الصابئة المندائيين لفترة قد تمتد إلى ما قبل العصر العباسي، ومن أهمية هذا الموقع تعامل معهم الآخرون بود يشوبه الحذر.

اتخذ المندائيون، على مدى زمن طويل، من الصمت ومن لغتهم المندائية الغامضة على المحيطين بهم من الأديان الأخرى، سبيلاً إلى البقاء. كان الغموض نافعاً في الحفاظ على كيانهم الديني، يهمسون به للرد على سخرية جاهل يحاول النيل من عقيدتهم، أو معتد قصد ديارهم لفرض ما لا يريدون وما لا يطيقون. شبهات عقائدية كثيرة دارت حولهم، أقلها أنهم يعبدون الكواكب والنجوم، أو يزهقون أرواح المحتضرين منهم، أو يعبدون كائناً لا وجود له إلا بأذهان الجاهلين بتفاصيل ديانتهم يدعى (اشميدهية). هذا ما يشاع عنهم في جنوب العراق. والحقيقة أن من شعائرهم تغسيل المحتضر وإكساءه الكسوة الدينية البيضاء المعروفة بالرسته، اعتقاداً منهم أن ذلك يمكن روحه من الصعود إلى مكانها في «مشوني كشطا» السماوي (أسفل طبقات عالم النور)، وهي مطهرة مما علق بها من نجاسات العالم الأرضي. وقال بعض الفقهاء بنجاستهم لأنهم مشركون، وفقاً للآية «إنما المشركون نجسٌ»[1]. على الرغم من أن النظافة والطهر كانا شاغلهم الشاغل. وأباح البعض الآخر قتلهم، بدعوى عدم اقرارهم بالتوحيد، مع توحيدهم ووداعتهم. فلرقة منهم يعتذرون ويستغفرون بعد ذباحة الطير والحيوان.

(١) سورة التوبة ٢٨. ولا يخص هذا النص سوى مشركي العرب بمكة.

ترك المندائيون في المكان مفردات ما زالت شاعة ومتداولة جنوب العراق . منها «طبٌ» وهي «طْبَا» المندائية وتعني دخلَ ، وتستخدم بالمعنى نفسه مفردة دوشا أي دش أو دشيت . و«شيلة» وهي «شيالة» المندائية ، غطاء رأس المرأة العراقية الجنوبية ، وأصلها قطعة من اللباس الديني «الرستا» ، تختص بها النسوة . أما الرجل فيعرف غطاء رأسه «برزنقا» أي العمامة . وتطلق مفردة «زوطة» أي الصغير ، أو الطفل ، في اللهجة الجنوبية ، على نوع من الطيور المعروفة بـ «زيطة» وهي الأصغر حجماً . وشاعت كلمة «ويل» المندائية على لسان العراقيين وغيرهم ، وتعني النار أو الجحيم أو العذاب بشكل عام . ومَنْ يحقق في الغناء الجنوبي العراقي يجد حضور أكبيراً لهذه المفردة ، فأي مغن لا يستهل أغنيته بعبارة «ويلاه ويلاه»! وما ميسان إلا مفردة مندائية أصلها «مي سيانه» أي الماء الطيني . وقيل : مي تعني الماء وشيان تعني : القصي أو البهي ، ومفردة «موسى» هي «مي سا» وتعني الغارق[٢] . ومثلما سعى أهل الأديان الأخرى إلى اعتبار شعوبهم شعب الله المختار ، وخير أمة أخرجت للناس ، قال المندائيون : نحن «بهيرا زدقا»[٣] وهم المختارون الصادقون .

إن صحت العبارة أن المندائيين أثر من آثار التاريخ الحيّة ، يذكر وجودهم بأنبياء ورسل نسخت الأديان المتعاقبة شرائعهم ، ولم يبق منهم غير صحف نوح وإبراهيم . فقول المندائيين : إنهم أقدم ديانة سماوية على وجه الأرض ، وإن كتبهم هي صحف سادة البشر الأولين : آدم وشيت وإدريس ونوح ، يرفعهم إلى مصاف بدايات الأديان والشرائع الموحدة في التاريخ ، والكل نحل من منحلهم . لذا من الصعب أن يُعرف للصابئة المندائية مؤسس ، وهذه الخاصية ميزتهم عن اليهودية ، والمجوسية ، والمسيحية ، والمانوية ، وحتى الإسلام وغيرها من الديانات العالمية . وتشير روحانيتهم الصافية إلى فلسفة خاصة قد تنفي سفارة البشر بين السماء والأرض . لخص المؤرخ والفقيه الشافعي محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) تعلقهم بالروحانيات بالقول : «إنما مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين»[٤] .

ويبدو أن غرض الشهرستاني من نقل ، أو إبداع ، الحوار بين الصابئة والحنفاء[٥] هو ميل الصابئة إلى الرسل من الكائنات النورانية ، مثل هيبل زيوا(جبرائيل) . فالبشر لخطاياهم ، وما يتعلق بأبدانهم من فساد ، لا يصلحون للسفارة بين الله وخلقه . قال الشهرستاني في مذهب الصابئة : «إن للعالم صانعاً ، فاطراً ، حكيماً ، مقدساً عن سمات الحدثان ، والواجب علينا

(٢) رومي ، الصابئة ، ص ٤٦ و١١٢ ، وسباهي ، الصابئة ، ص ١٧٦ .
(٣) المراني ، مفاهيم صابئية ، ص ٩٩ .
(٤) الشهرستاني ، الملل والنحل ٢ ص ٥ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ٩-٤٤ .

معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله ، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه ، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهراً ، وفعلاً ، وحالة»[٦] .

بيد أن ما أتى عليه الشهرستاني ، من عدم اعتراف الصابئة بأنبياء بشر ، قد يفنده ما ورد في كتبهم من الصحف التي نزلت على آدم ، والكتاب الذي نزل على أحد النوصرائيين إدريس (دنانوخت) ، وما يؤكده في الوقت نفسه أنهم لم يسموا أحداً من البشر بالنبي أو الرسول ، والكل عندهم كانوا نوصرائيين ، من آدم إلى يحيى بن زكريا . فالكتابات الصابئية المندائية أشارت «إلى الاعتقاد بأن المعرفة أو العلم الرباني - مندادهيي - إنما يؤتيه الله عباده المختارين الصادقين (بهيرا زدقا) ، إما وحيا وإما إلهاماً ، وذلك هو صوت الحي الأقدم (شوت هيا قدمايي) ، أو فيضاً سماوياً وكشفاً وهو التجلي (جلا) ، أو بواسطة رسل أثيرين نورانيين»[٧] .

وما يفيد في تأكيد تعصب المندائيين للروحانية أنهم ومنذ القدم لايهتمون بالمقابر والأضرحة ، التي تخلد عادة صفوة القوم . فحسب رجل دين صابئي أهوازي ، التقيته على هامش ممارسة التعميد أو الصباغة ومؤتمر حول المندائية ، أن الاحتفاظ بالقبر لايستمر أكثر من خمسة وأربعين يوماً ، فما يتخلف في التراب لا يعني شيئاً بعد صعود الروح خلال ثلاثة أيام . وعدم اكتراثهم بلقبور ليس خشية من الشرك ، مثلما يذهب إلى ذلك المسلمون الوهابيون ، بقدر ما فرضته عليهم فلسفتهم في الروحانيات ، وساهمت فيه البيئة المائية التي

---

(٦) المصدر نفسه ، ص ٦ .

(٧) المراني ، مفاهيم صابئية مندائية ، ص ٩٩ . تجدر الإشارة إلى ما قاله عمّ النبي محمد أبو طالب عبد مناف بن عبد المطلب ، حين بلغه من أن ابن أخيه سيكون نبياً أو رسولاً : «الله أجل مما تقول» (الصافي ، كتاب السيرة المحمدية ، ص ١٨٣ ، عن السيرة الحلبية ١ ص ١١٨-١١٧) . تنبه هذه العبارة التي وضعها أمامي كتاب معروف الرصافي إلى أن هناك مَنْ لايعتقد بصلاحية الإسان لحمل رسالة سماوية من غير الصابئة المندائيين . وأنما ذلك من أختصاص الملائكة ، أو الكائنات النورية على حد التسمية المندائية للملائكة ، .قال الرصافي : «أذ لاريب أن الله أعظم وأجل من أن يعمد إلى إنسان فيرسله إلى الناس ليخبرهم عنه بما يريد ، فأن هذا لايليق بذاته الفعالة المطلقة ، ولا بوجوده الكلي السرمدي النهائي»(المصدر نفسه) . فلا أبو طالب ولا الرصافي كانا صابئيين ، ظل الأول متأرجحاً في الرواية الإسلامية بين أحتفاظه بديانة قومه وبين الإسلام ، والثاني وأن كان مسلماً سنياً إلا أن أعتقاده الديني ظل منزلة بين منزلتين . فحسب كتابه كان يؤمن بالله وله رأي في الأنبياء . وتذكر الرواية أن أبا سفيان صخر بن حرب تردد في القول بالشهادة الثانية يوم الفتح «فجعل يمتنع من أن يقول : وأنك رسول الله» (تاريخ اليعقوبي ٢ ص ٥٩) . وفي رواية قال أبو سفيان للرسول بعد أن تشهّد الشهادة الأولى ، التي ليس له اعتراض عليها ، وهو يدعوه للتشهد بالثانية : «بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأحلمك وأكرمك! أما هذه ففي النفس منها شيء!» (الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ٢ ص ١٥٧) .

لا يجد الأحياء فيها محط قدم فكيف بالأموات! أما الآن فللمندائيين مقابرهم بالعراق والأهواز والدول التي هاجروا إليها مؤخراً . لكن بناء القبر ليس من تعاليم الدين . أختص الصابئة المندائيون ، دون غيرهم من الديانات ، بالقول بأكثر من آدم ، وأكثر من كوكب مأهول بالبشر . فهو آدمنا الذي خُلق من طين أرضنا ، ونزلت روحه من عالم النور بأمر الحي الأزلي ، وآدم الخفي (كسيه) ، وبهذا أجابوا بسهولة على تساؤل أبي العلاء المعري :

إذا مـــا ذكـــرنـا آدماً وفـعـالـه
وتـــزويـــج بنتيـــه فـي الخـنـا
علمنـــا بـــأن النـاس من نسـل فاجر
وأن جميـع الخـلق مـن عنصر الزنا[٨]

فحسب العقيدة المندائية «لم يتزوج الأبناء أخواتهم ، إنما أرسلت البنات إلى عالم آخر فيه أناس مثلنا ، يسمونه مشوني كشطه ، أي أرض العهد ، وجيء بفتيات من مشوني كشطه إلى أولاد آدم فتزوجوهن . وعلى هذا الأساس فالمرأة في نظر الدين من عالم غير عالمنا ، فقد أتت من عالم الطهارة»[٩] . وحجة المندائية أيضاً في طهارة المرأة «أن آدم خلق من طين وحواء خلقت من جسمه . وعلى هذا الأساس فتسمية الابن باسم أمه أعلى من تسميته باسم أبيه (آدم من طين اهوه ، هوه زوى من كان ادنافشي اهوت) أي أن آدم من طين وزوجته حواء من نفسه ، وبذلك فهي أطهر من الطين»[١٠] .

اعتقد المندائيون ، ربما لاهتماماتهم الفلكية ، بوجود بشر خارج كوكب الأرض ، فالكواكب السماوية عندهم ، ما دون عالم النور ، اتخذت سكناً للبشر (الشبه روحيين) والكائنات النورية . وترشد كتبهم الدينية ترشد إلى عوالم «يسكنها بشر مثلنا ، وتركز بالدرجة الأولى على عالم العهد مشوني كشطه . وتذكر أيضاً أن البشر في هذا العالم لا يختلفون عنا كثيراً . وعلى هذا الأساس فقد أمر هيي ربي قدمايي ، الحي الأزلي ، بنقل بنات آدم من هذا العالم (اره اد تبيل) ، الأرض ، وجلب زوجات من عالم مشوني كشطا لأولاده»[١١] . ويصف غضبان رومي ، وهو واحد من المثقفين المندائيين العراقيين البارزين ، مستقبل العلاقة بين إنسان الأرض وإنسان الكواكب الأخرى حسب تصورات ديانته بالقول : «من ذريتهن تكوّن الإنسان الحالي ، الذي أخذ يزحف من عالمنا هذا نحو الكواكب الأخرى .

(٨) العلوي ، المنتخب من اللزوميات لأبي العلاء المعري ، ص ٢٤٦ .
(٩) رومي ، الصابئة ، ص ١٦٧ ، أداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص ٢١٥ .
(١٠) المصدر نفسه ، ص ١٦٧ .
(١١) المصدر نفسه ، ص ١٨٠ .

وليس ببعيد أن يصل في آخر المطاف إلى عالم مشوني كشطه ، وينزل ضيفاً على أخواله هناك ، مُستقبلاً من أبناء عماته»[١٢] .

كان آدم أباً للبشر وحواء أمهم . لكن البشرية ، حسب الكتب المندائية ، فنيت عدة مرات بكوارث سببها عالم الظلام المنحوس . وانتقل ما فيه من شر إلى الآدميين عبر مادة الطين ، وهي من عالم الظلام حيث الماء الآسن ، والتي منها كان جسد آدم . وفي كل فناء يبقى رجل وامرأة يتجدد الجنس البشري منهما . «فبعد شيت قضي على هذا العالم بالحرب ، ولم يبق منه إلا رجل وامرأته ، هما رام ورود . وبعد عشرات الالوف من السنين فني العالم بالنار ، ولم يبق منه إلا شوربي وزوجته شور هيبل . وبعد عشرات الوف أخرى جاء الطوفان ، ولم ينج منه إلا نوح وابنه سام ، وزوجته انهريتا»[١٣] . وحسب أغلب الأديان ، ومنها المندائية ، إن هذه الكوارث ضرورية لغسل الأرض من خطايا البشر . قال أبو العلاء المعري وكأنه قرأ الكنزاربا :

والأرض للطوفان مشتاقة — لعلها من درن تُغتسل
قد كثر الشرُ على ظهرها — وأتُهمَ المُرسِلُ والمُرتسَل

إن اعتقاد المندائيين بوجود بشر يعيشون على الكواكب العليا يقود إلى علاقة ما بنظرية أفلاطون «المثل» أو «النماذج» . وبالتالي له صلة ما بالفكر اليوناني بشكل عام . ولا ندري ، هل كان هذا التوافق توارد خواطر أم تأثيرات فلسفية مباشرة ، قد يكون للحرانيين في نقلها دور ما . ولا يستبعد أن يكون الأمر امتداداً سومرياً وبابلياً ، حيث القول بوجود مجتمع الآلهة ، ومكانه العالم العلوي ، وخلق البشر على هيئته ونظامه .

قالت الخبيرة في الشؤون المندائية الليدي دراوور[١٤] : «أخبرني أحد الكهان : يوجد اثنان من كل شيء في الدنيا ، الواقع ومقابله المثالي . وأوضح لي : أن لكل شخص على هذه الأرض شبيهاً (دموثه) في مشوني كشطه . ولدى الوفاة يفارق إنسان الأرض جسمه الترابي ، ويلتحق بالجسم الأثيري لشبيهه . وفي هذا الجسم الأخير تعاني الروح آلام التطهير . أما الشبيه في مشوني كشطه ، فهو لدى وفاة صنوه الأرضي يغادر جسده الأثيري ، الذي

---

(١٢) المصدر نفسه .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ١٨٨ .

(١٤) من الدراسات المهمة التي تناولت طقوس هذه الديانة عن قرب دراسات المستشرقة دراوور (١٨٧٩ - ١٩٧٢) في كتابها (The Mendeans of Iraq and Iran) والذي ترجمه إلى العربية المندائيان غضبان رومي ونعيم بدوي ، كذلك صدر لها قاموس «مندائي - إنكليزي» . وفي العام ١٩٥٣ أصدرت في الفاتيكان وثيقة عن الصابئة بعنوان «حوران الداخلية» ، ثم بيبلوغرافيا الكتب المندائية إضافة إلى دراسات أخرى مشفوعة بمصورات مندائية .

استقر به ، ويدخل في جسم نوراني . وحين تكون النفس البشرية قد أتمت دورتها التطهيرية ، وأذنت لها موازين أباثر بالانعتاق من أعبائها ، تدخل أيضاً في عالم الأنوار ، ويتحد الاثنان»[١٥] . جاء في النصوص المندائية على لسان المحتضر : «أذهب إلى شبيهي ، وشبيهي يأتي إليَّ ، يتذكرني ويحتضنني ، كما لو أنني خارج من السجن»[١٦] .

تقطن هذه المُثل ، حسب الشيخ هرمز برانهر ، الكواكب ، ومنها «نجم يقطنه البشر ، أحفاد آدم الخفي (آدم كسيه) ، إلا أنهم شبه روحيين في طبيعتهم ، وأصغر منا حجماً . ويسمى هذا النجم المريخ ، وهو نجمة الصبح»[١٧] . ويبدو خيال الكهنة المندائيين خصباً ، وسبقت تصوراتهم حول الكائنات الغريبة ما اسماه العلماء حديثاً بـ(Aliens) ، وهم سكان الكواكب المحتملين . ومَنْ يتفحص الرسومات المندائية ، أو المنمنمات في كتبهم الدينية ، ومنها «ديوان أباثر» يجد الشبه واضحاً بين المخلوقات المندائية وبين تلك الكائنات حسب تصور العلماء . نقول هذا لمجرد التذكير بخصوبة الخيال المندائي ، والاهتمام الفلكي ، الذي وصل إلى حد توهم الآخرين أنهم عبدة الكواكب والنجوم .

سفن الفضاء

لدى المندائيين كتب ورسومات أشارت إلى ناقلات الأرواح ، أو ما عرف بسفن الكواكب[١٨] . ظهرت على صفحاتها رسوم وتخطيطات لأشكال من هذه السفن على هيئات الشمس والقمر والزهرة . قالت دراوور : الشمس (شامش) «كسائر الأرواح الفلكية في دورته عبر الفلك ، واعتباره قوة للخير لا للشر ، واضح على الأغلب في كتب الصابئيين . وأكثر من ذلك ، فلدى الصابئيين سنة شمسية وأعداد شمسية مقدسة ، ويدخل قرص الشمس في رسم الحروف الأبجدية ، ويظهر شامش (راكب السفينة الرئيس) مطابقاً لياور زيوا (ملاك) ، والصلوات له ذات صفة شمسية ، والتقاليد تعين له بحارة سبعة أُثري (ملائكة) نواريين ، ولو أن الصورة في «ديوان أباثر» لا تحتوي إلا على أربعة شخوص يقفون بجانب شامش في زورق الشمس»[١٩] .

والشمس عند المندائيين ليست مضيئة ، بل تستمد الضوء من أرواح أوكائنات نورانية

---

(١٥) دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ١١٠ .
(١٦) المصدر نفسه .
(١٧) المصدر نفسه .
(١٨) ماهود أحمد محمد ، منمنمات الصابئة المندائيين في العراق ، مجلة التراث الشعبي ، ١٩٩٤/١ .
(١٩) دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ١٣٦ .

كونية «تماماً كما تعكس المرآة الصورة تعكس الشمس ملكه زيوا وشامش (الشمس) سيد جميع ملائكة الدنيا المادية»[٢٠] . وهذا خلاف ما توصل إليه علم الفلك من أن الشمس مصدر النور . وتبدو سفينة القمر ، حسب الرسومات ، أصغر من سفينة الشمس ، ويصاحبها ثلاثة بحارة ، أحدهم يمسك الصارية والثاني يمسك المقود والثالث يقوم بدور الحراسة من كائنات الظلام[٢١] . أما سفينة الزهرة فتبدو أصغر من سفينة القمر ، وتظهر ليبات أو الزهرة جالسة في السفينة ، يصاحبها حارس مسلح ، مع بحار نوراني يدير مقود السفينة[٢٢] . ظهرت هياكل السفن الكونية في رسومات بدائية ، اطلعت عليها الليدي دراوور ونسختها في عدة كتب ، منها «ديوان أباثر» . لم تشر دراوور إلى ناقلات الأرواح ، حيث سفرها بعد الموت إلى المطراثي (مكان تطهير الأرواح من الذنوب) ، لتحديد مصيرها ، ومرورها على الملاك أباثر النوراني المسؤول عن وزن الروح وتحديد منزلتها إن كانت في جنة أو نار ، فهو بمثابة السراط المستقيم . وهي «لا تشبه سفن الأفلاك ، فهيكلها أكثر انسيابية في التكوين ، فهي مثل الهلال في وضع أفقي»[٢٣] .

والظاهر أن رسامي سفن الكواكب ، أو ناقلات الأرواح ، استوحوا شكلها من القارب المستخدم في الأهوار جنوب العراق (المشحوف) ، الذي أشتهر الصابئة بصناعته منذ القدم . واستوحى الرسام أدوات ملاحة السفن من أشكال أدوات الملاحة بالقارب المذكور . مثل المجذاف و(المردي) . يشير هذا التناغم إلى صلة المندائيين القديمة بالمنطقة ، فلو كانوا بحران أو فلسطين ، لاتخذت وسائلهم إلى الكواكب والمطراثي أشكالاً أخرى . عموماً تبقى هذه الرسوم عن خيال خصب له صلة ما بأفكار الأقدمين لغزو الفضاء الخارجي ، رغم أنها عند المندائيين مجرد طلاسم وتعاويذ ، تستخدم لحفظ الأطفال وطرد الشرور القادمة من عالم الظلمة .

العروج

وللمندائيين معراجهم أيضاً ، غير ما سبق من سفن الكواكب وناقلات الأرواح ، هو معراج دنانوخت أو إدريس إلى السماء السابعة ، حيث مكان الحي العظيم . وإدريس النبي هو أحد عظماء المندائيين من النوصرائيين العارفين في الدين ، وكان يحفظ عن ظهر قلب الكتب المقدسة ، ويحتفظ بها في مكان مقفل ، كما أُنزلت من الحي الأزلي على آدم أبي البشر .

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .

(٢١) مجلة التراث الشعبي ١/١٩٩٤ .

(٢٢) المصدر نفسه .

(٢٣) المصدر نفسه .

وفي يوم من الأيام وجد كتاباً جديداً موضوعاً على الكتب الأخرى ، فمزقه لعدم معرفته بحقيقته . لكنه أينما ذهب يجده أمامه ، وفي كل مرة يمزقه ويحرقه ، فيظهر له كاملاً في مكان آخر ، فاجتمع النوصرائيون الأربعة والعشرون ، وتوصلوا إلى أن هذا الكتاب منزل من الله ، ولا بد أن يقرأ مثل الكتب الأخرى . غير أن الكتاب الجديد قاد إلى عبادة القمر . وظهر كتاب آخر دل على دين آخر . وهكذا أخذت الكتب تظهر لدنانوخت واحداً بعد الآخر حتى ظهر له الكتاب السابع .

أدت هذه الكتب السبعة إلى تفرق النوصرائيين إلى مذاهب باطلة ، ليس بينها مذهب الحق . وبعدها نزل كتاب ثامن كان يشع نوراً من البداية ، ويحتوي على المعرفة الكاملة بالله . وعند قراءته انتصب أمام دنانوخت ملاك نوراني هو هيبل زيوا ، دعاه إلى العروج معه إلى السماء ، وتم العروج أثناء النوم . ومن كوكب إلى آخر ، كان آخرها كوكب الشمس ، وهو مكان النور ، ثم عرج إلى الجنة ، مكان يسكنه النورانيون الأربعة الكبار وهم : أرهام هيي ، اين هيي ، سروم هيي وزيوا هيي ، (تعني كلمة هيي المندائية المصاحبة للأسماء المذكورة الحي) .

حاول دنانوخت التوقف عن العروج . لكن هيبل زيوا أمره في مواصلة الرحلة حتى محل (ملكا اد نهورا) . ومن عالم نوري إلى آخر حتى وصلا إلى محل مملوء بالأثري ، حيث سماء السموات ، بحر الضياء ومياه النور . كانت غاية العروج أن يعود دنانوخت إلى الأرض فيقص ما شاهد من عجائب العوالم السماوية . غير أنه حاول المكوث في عالم الضياء ، فقال له الملاك : «ألم أقل لك بأنك يجب أن تعود لتقص إلى الناس ما رأيت ، ولهذا سيتعلمون وسيؤمنون ولا ينكرون»[(٢٤)] .

ورد وصف دنانوخت في «الكنزاربا» بـ «الكاتب الحكيم ، حبر الآلهة ، الفخور المتكبر»[(٢٥)] ، أو «فقيه الدين الحكيم ودواة كتاب الآلهة والفخور والمترفع»[(٢٦)] ، ولم يصفه الكتاب بالنبي أو الرسول . وردت قصة عروج الحكيم المذكور كاملة في «الكنزاربا» ، مع اختلاف في ترجمة النص ، إلى حد ما ، عما ترجمه المندائيان غضبان رومي ونعيم بدوي ، مع احتفاظ القصة بجوهرها في الترجمتين . ورد في «الكنزاربا» على لسان دنانوخت : «رأيت الحي الذي كان منذ الأزل . ورأيت الكشطا التي منذ البداية . رأيت الموت ورأيت الحياة ورأيت النور . رأيت الخطأ ورأيت الصواب . رأيت البناء ورأيت الخراب . رأيت المرض ورأيت

---

(٢٤) كيف زار دنانوخت السماء السابعة ، ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي عن الكنزاربا ، مجلة التراث الشعبي ١٩٧٣/٥ .

(٢٥) الكنزاربا اليمين ، ص ١٥٩ .

(٢٦) كما ورد في» الكنزاربا» نسخة مارك ليدزبارسكي ، طبعة استراليا .

الشفاء . رأيت هذا الرجل الفاضل الشيخ الواقف منذ القدم بين الأرض والسماء»[٢٧] .

ولا ندري بالضبط مَنْ هو الرجل الفاضل الواقف منذ القدم بين السماء والأرض؟ لكن بعد قراءة النصوص الخاصة في العلاقة بين مندادهيي والمشارك الفعال في عملية خلق السماء والأرض ، نتوقع أن يكون ذلك الفاضل هو الملاك مندادهيي؟ وحسب «الكنزاربا» (طبعة استراليا ، وترجمة ليدزبارسكي) تنقص النص العبارة الآتية ، مما ورد في ترجمة بغداد ، «لقد رأيت الرجل ذا المقام السامي الذي هو أقدم سناً ، وكان في وجوده أسبق من ذلكم الذي شيد السماء والأرض»[٢٨] . إن الذي شيد ، أو شارك بفاعلية في تشييد السماء والأرض ، كما قلنا ، هو الملاك بثاهيل ، أشار إلى ذلك النص المقدس الآتي : «سجد بثاهيل وسبح للخالق الجبار ، ثم أمسك بسرة الأرض محاولاً ربطها بقلب السماء»[٢٩] . و«قال ملك النور السامي قوله ، فكان كل شيء . نزل بثاهيل فرفع السماء فبسط الأرض»[٣٠] .

قال دنانوخت ، بعد رؤية عجائب وغرائب العالم النوراني لدين مليخ الأُثري (لاأثر لاسم الملاك هيبل زيوا في الترجمة العربية لكنزاربا كما ورد ذلك في ترجمة رومي وبدوي) : «أظل على عتبة بيت الحي ، ألهم التراب . وأكل الأحجار . ولا أعود إلى عالم الأشرار»[٣١] . عاد إدريس من رحلته إلى السماء بتجربة ورؤية جديدة ، لما يخفيه العالم السماوي من كائنات وعلاقات ومصير للبشر . وعاد زرادشت من رحلة إلى السماء . وعاد النبي محمد من رحلة إلى السماء أيضاً . ناهيك من تفاصيل صعود عيسى بن مريم ، وقبله نزول تموز أو دموزي السومري من العالم العلوي إلى القعر المظلم في العالم السفلي ، والذي هو عالم الظلام عند المندائيين . إلا أن الجميع لم يخرجوا من فكرة المنقذ المستلهم تعاليم السماء . وما يختلف فيه المعراج المندائي أنه معراج مستمر ، لم ينقطع عند إدريس ، وسيعرج كل البشر الطاهرين أو بعد تطهيرهم . كل روح (نشماثا) تعرج بقارب سماوي . ومن قبل عرج آدم ، وبعده كان معراج يحيى بن زكريا ، الأب والمعلم المختار والشيخ العظيم الوقار ، وهذه ألقاب يحيى في

---

(٢٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٦-١٦٧ . ورد النص بترجمة مارك ليدزبارسكي : «لقد رأيت أنا الحياة تلك التي كانت قد نشأت منذ الأزل ، لقد رأيت الكوشطا ، تلك التي كانت منذ القدم في البداية . ثم استطرد هو قائلاً : رأيت الموت ورأيت الحياة ، رأيت الظلام ورأيت النور ، رأيت الخطأ ورأيت الحقيقة ، رأيت الدمار ورأيت النشوء والبناء ، رأيت البلاء ورأيت الشفاء ، لقد رأيت الرجل ذا المقام السامي الذي هو أقدم سناً ، وكان وجوده أسبق من ذلكم الذي شيد السماء والأرض» .(الكنزاربا اليمين ، طبعة استراليا ، السادس ، ص ٢٠٧) .

(٢٨) الكنزا ربا ، الكتاب اليمين ، الفصل السادس ، ص ٢٠٧ .

(٢٩) الكنزاربا اليمين (طبعة بغداد) ، الخليقة ، ص ٦٨ .

(٣٠) المصدر نفسه ، الوصايا ص ٩ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ١٦٨ .

«الكنزاربا» ليس بينها ما يشير إلى أنه نبي أو رسول . جاء في معراج يحيى : «سمع مندادهيي ما قاله يحيى ، فوضع يده عليه ، وقف يحيى ، وخلع في يردنا (النهر) ثيابه ، ثياب اللحم والدماء ، وارتدى بدلة الضياء ، واعتم بعمامة النور ليصعد مع مندادهيي إلى بلد النور»[٣٢] . غير أن عروج آدم ويحيى كانا بدون عودة مثل العودة التي فرضت على إدريس .

الصلة بالعراق

تفيد رواية أبي الحسن المسعودي التالية بصلة المندائيين بالعراق وحضارته القديمة . قال : «والكلدانيون وهم البابليون الذين بقيتهم في هذا الوقت بالبطائح بين واسط والبصرة في قرى هناك ، وتوجههم في صلاتهم إلى القطب الشمالي والجدي»[٣٣] . وكم تقترب رواية المسعودي من الصحة إذا أسندت بوشائج حضارية ، وشعائر طقسية ما بين المندائيين والبابليين ، وكلها تؤكد أُصولهم العراقية ، وما بينهم وبين الحرانيين غير اسم الصابئة ، وكتاب قيل إنه تحدث عن وجودهم بحران ، وصلتهم بحيى المعمدان ، الذي اعتبره المندائيون من بيئة الأهوار . كما سيأتي ذكر ذلك . أشار التاريخ القديم إلى صابئية الكلدانيين وهم البابليون . لكن قد لا يكفي ذلك دلالةً على صلة المندائيين ببابل . والسبب أن الصابئية ، حسب معظم المؤرخين ، كانت تسمية عامة لديانات كثيرة ، عرفها الكلدانيون واليونانيون والرومان والهنود والفرس والقبط وغيرهم . ومحور عقيدتها عبادة الكواكب والأصنام ، أي الوثنية بعينها ، التي تقول بتعدد الآلهة . قال ابن العبري (ت٦٨٥هـ) : «كانوا جميعاً صابئة ، يعبدون الأصنام ، تمثيلاً للجواهر العلوية والأشخاص الفلكية»[٣٤] .

غير أن التأكيد يأتي من الباحث العراقي المندائي عزيز سباهي الذي توصل ، في

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ . كذلك نَذكر بعروج النبي حزقيال ، أو المعروف في قصص الأنبياء الإسلامية بذي الكفل . ويعتقد أنه صاحب الضريح القائم على حدوة الفرات قريباً من بابل وسط العراق . عرج بعيد السبي البابلي بكائن أسطوري يشبه البراق ، الذي وردت أخباره في إسراء ومعراج النبي محمد إلى السماء . قال حزقيال عن وسيلة عروجه المسماة بمركبة الرب : «نظرت فإذا ريح عاصف مقبلة من الشمال ، وغمام عظيم ونار متواصلة ، وللغمام ضياء من حوله ، ومن وسطها ما يشبه اللمعان القرمزي من وسط النار . ومن وسطها شبه أربعة حيوانات . وهذا منظرها : لها هيئة بشر ، ولكل واحد أربعة وجوه ، ولكل واحد أربعة أجنحة ، وأرجلها أرجل مستقيمة ، وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل . وهي تبرق مثل النحاس الصقيل . ومن تحت أجنحتها أيدي بشر على أربعة جوانبها . وكذلك وجوهها وأجنحتها لأربعتها . . .»(الكتاب المقدس ، العهد القديم سفر حزقيال ، ١/ ٤ - ٢٨) .

(٣٣) المسعودي ، التنبيه والأشراف ، ص ١٣٧ .

(٣٤) ابن العبري ، مختصر تاريخ الدول ، ص ٣ .

دراسته المقارنة بين البابليين والمندائيين ، إلى ما يُطمأن له من وجود صلة بين الديانتين . منها تشابه بيت العبادة ، المندي الصابئي والمعبد البابلي . الأول «كوخ صغير من القصب المطلي بالطين ، يبنى على الأرض غير المبلطة ، والفتحة الوحيدة فيه هي الباب التي تواجه الجنوب . لكنه يتجه من داخله نحو الشمال ، نحو النجم القطبي ، حيث يتجه المندائيون في صلواتهم . ولا تجري فيه أي شعائر دينية يجوز للعامة أن تشارك فيها . وأمامه بركة أو حوض من الماء يرتبط بقناتين في مجرى الماء الجاري ، تسمحان بجريان الماء في البركة»[٣٥] . وقال سباهي عن آخرين : «إن هذا المعبد (المندي) يذكر بالمعابد البابلية في مراحل العبادة الأولى ، حيث يوضع تمثال الإله في كوخ صغير مبني من القصب والطين ، ويجلس فيه الكاهن ، وإليه يلتجئ الناس التماساً للمشورة ، وقد عثر في رقيم مشهور من كيش على صورة هذا المعبد»[٣٦] . ويتماثل المندائيون والبابليون بأمور أخرى ، منها : التشدد في تحريم حلق اللحية وشعر الرأس ، وضرورة ارتداء لباس الرسته (لباس المندائيين الديني) في أداء الطقوس الدينية .

وفي اعتقاد الديانتين أن الروح بعد مفارقتها الجسد تبقى تحوم ثلاثة أيام حول قبر المتوفى . بعدها تبدأ الرحلة إلى السماء حيث المطراثي . كما هو الحال عند المندائيين ، لوزن أعمالها على يد أباثر (ملاك الميزان) . و«نفس الصورة تقريباً يجدها المرء لدى البابليين ، فروح الميت عندهم تبقى ثلاثة أيام بعد إيداع جثمانه في القبر . بعده تبدأ الرحلة إلى ما وراء العالم ، وتجري محاسبة الروح على يد المثرا . ومن ثم الراشنو ، الذي يتولى وزن أعمال الميت الخيرة والشريرة ، وحتى إذا مال الميزان نحو جانب الخير فما زال أمام الروح البابلية أن تقدم كفارة عن الذنوب ولطلب الرحمة . وهذا ما يقابل المسخثة التي تقام للنفس المندائية للغرض ذاته . أما من ثقلت موازينه فالجسر الذي يتعين اجتيازه في الحالتين يغدو دقيقاً كالشعرة»[٣٧] .

تقترب الديانتان كثيراً في أسطورة الخلق . فما ورد في «الكنزاربا» هي أسطورة «إينوما ايليش» البابلية نفسها . وملخصها : أن الكون كان المياه الأولى (تي آمت) لا شيء غيرها . وحدث أن ظهر الآلهة العظام جيلاً بعد جيل ، حتى جاء الإله خالق البشر . فحدثت الحرب بين العالم العلوي ، وليكن عالم النور ، والعالم السفلي ، وليكن عالم الظلام ، الذي تمثله تي آمت عند البابليين والروهة وأولادها عند المندائيين ، فيقتل الإله مردوخ تي آمت ويقضي على فلولها الشريرة . وبالمقابل عند المندائيين يقضي الملاك هيبل زيوا على كائنات الظلام

(٣٥) سباهي ، أصول الصابئة ، ص ٦٥ .
(٣٦) المصدر نفسه ، عن هوك ، ديانة بابل ، ص ٧٦ .
(٣٧) المصدر نفسه ، ص ٦٨ عن آخرين .

(الروهة وأولادها السبعة) ، ويخلق الإنسان ليعبد الآلهة[٣٨] .

أما عند المندائيين فالإله واحد ، هو الحي القديم ، يكون منه يردنا (الماء الحي) . ومن هذا الماء كانت الحياة الثانية ، وهي الملاك مندادهيي ، العارف بالله ، وبقدرته ظهر الأثريون . ينزل هؤلاء إلى عالم الظلام ، حيث المياه الآسنة والشياطين ، أرض العوز والنقصان . ثم يأتي ملاك هيبل زيوا (واهب النور على حد عبارة دراوور) لمطاردة ملكة الظلام الروهة . وبعد القضاء عليها يأمر الحي المتسامي الملاك بثاهيل (الذي ينسب له مع كائنات نورية أخرى تكوين السماء والأرض) بخلق جسد آدم . ينتظر الجسد بلا حراك حتى يجلب مندادهيي الروح له من موقعها العلي ، ويتم خلق الكون ليظهر فيه الإنسان ليعبد الحي الأزلي[٣٩] . والفرق بين الملحمتين ، أن المندائيين جعلوا الخلق من اختصاص إله واحد ، وأن الذين عرفوا بالآلهة في القصة البابلية ، مثل : مردوخ أو أنليل وأنو وأناتو أصبحوا عند المندائيين ملائكة أو كائنات نورية ، تعمل ما يأمرها الحي العظيم .

وإذ تحدثت الكتب أو الأخبار الصابئية عن هجرة إبراهيم من أور الكلدانيين حيث جنوبي العراق ، وهذا ما أكده كتاب التوراة ، إلى الشمال حيث حران بعد أن فارق قومه المندائيين لسبب ديني ، أثار انستاس الكرملي مسألة ذات أهمية ، وهي أن إبراهيم خرج من أور الكلدانيين أي من نار الكلدانيين ، التي فهمت من التوراة أنها أور المدينة[٤٠] . ووفقاً لذلك تتأكد الصلة أيضاً بين المندائيين والكلدانيين أي البابليين . وتفيد أخبار مندائية ، نقلها شفاهة بعض كهنتهم ، أن إبراهيم كان مندائياً من عائلة كهنوتية ، ارتقى أخوه إلى درجة ريش أمة ، إلا أن مرضاً أصاب قلفته فأضطر إلى قطعها ، لذا حُرم من الكهنوتية ، كما هي التقاليد ، فرحل مع عائلته ، ولم يقترب من زوجته سارة لمرضه المذكور ، فقدمها إلى فرعون على أنها أخته .

بيد أن أهل العراق ، والصابئة منهم ، ما زالوا ينادون الزوج أو الزوجة أو الحبيب أو الحبيبة بالأخ أو الأخت . هذا ما يتداول بين الناس ، وفي أغان شعبية مشهورة . يُضاف إلى ذلك أن علاقات الزواج في الأزمنة الغابرة كانت تبيح الزواج من الأخت ، ومن بقاياها أن يتم الزواج وبإصرار من ابنة العم ، ذلك من بقايا تقديس رابطة الدم . مع أن المجتمعات الحضارية توصلت إلى تحريم ليس الزواج بين أولاد العم فحسب بل كراهة الزواج من الصديق القريب (*Best friend*) ، ولم يعرف بين المسيحيين بالعراق زواج بين أولاد العم .

---

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(٣٩) الكنزاربا اليمين ، قصة الخلق .

(٤٠) مجلة المشرق ، أيلول ١٩٠٠ .

يأتي البيروني بقصة ختان إبراهيم عن كتاب لابن سنكلا النصراني ، الذي نعته بالكذب على الصابئيين ، جاء في القصة : «إن إبراهيم ، عليه السلام ، إنما خرج عن جملتهم لأنه ظهر في قلفته برص . وأن مَنْ كان به ذلك فهو نجس لا يخالطونه ، فقطع قلفته بذلك السبب ، يعني أختتن ، ودخل بيتاً من بيوت الأصنام ، فسمع من الصنم صوتاً يقول له : يا إبراهيم خرجت من عندنا بعيب واحد ، وجئتنا بعيبين (المرض والختان)! أُخرج ولا تعاود المجيء إلينا . فحمله الغيظ على أن جعلها جذاذاً (حطمها) وخرج من جملتهم . ثم أنه ندم على ما فعله ، وأراد ذبح ابنه لكوكب المشتري على عادتهم في ذبح أولادهم ، زعم فلما علم كوكب المشتري صدق توبته فداه بكبش»[٤١] .

كَذبَ البيروني قصةَ ابن سنكلا النصراني ، ودافع عن الصابئة بقوله : «نحن لا نعلم منهم إلا أنهم أناس يوحدون الله وينزهونه عن القبائح ، ويصفونه بالسلب (منزه من الصفات) لا بالإيجاب ، كقولهم : لا يحد ، ولا يُرى ولا يظلم ، ولايجور ، ويسمونه بالأسماء الحسنى مجازاً . إذ ليس عندهم صفة بالحقيقة ، وينسبون التدبير إلى الفلك وأجرامه ، ويقولون بحياتها ونطقها وسمعها وبصرها ، ويعظمون الأنوار»[٤٢] . ما قاله البيروني كان صحيحاً ، وينطبق تماماً على المندائيين اليوم . لكنهم لا يحسبون للكواكب هذا الحساب إلا من باب التنجيم ، وفي هذا الباب يشترك معهم أهل أديان أخرى .

أما تعظيمهم للأنوار فلأنها فيض من النور الأزلي ، وهو الحي القديم أي الله . واللافت للنظر ، أن كاهناً صابئياً نقل لليدي دراوور قصة ختان إبراهيم الخليل ، وهجرته بعد خروجه من الدين المندائي ، عن طريق الأثر المتواتر بين أجيالهم . والسؤال هل أخذ المندائيون هذه القصة من ابن سنكلا النصراني ، أم أن الأخير أخذها عنهم وأضاف إليها ما أضاف؟ أما أن الصابئة المعاصرين ، وفي حدود العشرينيات ، يوم بدأت دراوور تبحث في شؤونهم ، قد قرأوا هذه القصة في كتاب البيروني «الآثار الباقية...» واعتبروها من موروثهم الشفاهي فهذا ضعيف الوقوع .

يلخص المندائيان نعيم بدوي وغضبان رومي صلة قومهما بالعراق القديم بالقول : «الصابئون طائفة عراقية قبل أن تكون أي شيء آخر . بل أننا كما تشير طقوسها صلة الحاضر بالماضي البابلي والأكدي والنبطي في العراق»[٤٣] . ونحيل مَنْ جعل لفظة الأردن أو يردنا دليلاً على نزوح الصابئة من جهة فلسطين إلى معنى الكلمة المذكورة . قالت دراوور : «أنها

(٤١) البيروني ، الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ص ٣٠٥ .
(٤٢) المصدر نفسه .
(٤٣) دراوور ، الصابئة المندائيون ، مقدمة المترجمين ، ص ٢٢ .

تعني نهراً جارياً ، وليس له علاقة بنهر الأردن في فلسطين ، فالأردن والنيل يسمى عند الصابئة اردنه أو أردن . وقد سمعت لفظة أردن تسمية للنيل من أحد يهود العراق ، وفي الرطنة تطلق الكلمة على أي نهر»[٤٤] .

لكن أصبح هذا التاريخ القديم ، والجذر الضارب في عمق الأرض العراقية مهدداً بالزوال . فقد أنعكس ما سببته سلطة البعث بالعراق من كوارث الحروب والاضطهاد والحصار ، على وجود الصابئة المندائيين ، مثلما انعكس على بقية الأديان والمذاهب . فهجر عدد كبير منهم العراق إلى البلدان الأوروبية واستراليا ، فأقاموا هناك وأسسوا الجمعيات ، التي لم تقطع الصلات مع المركز ببغداد . وبطبيعة الحال يتضح أمر الهجرة بين الأقلية أكثر منه بين الأكثرية ، فهجرة المسلمين من كرد وعرب وتركمان ليست بالقليلة . لم تتوقف الهجرة بل أضيف عامل آخر بعد زوال المسبب في ٩ أبريل «نيسان» ٢٠٠٣ ألا وهو تفشي الأصولية ، وظهورها على السطح .

الماء والضياء

تقول دراوور حول جدلية الماء والنور : إن مفردة «نهر وثيقة العلاقة بين معنى النور والماء في الفكر السامي . ففي اللغة المندائية لدينا كلمة نهر ونهورا أي نور . وفي العربية لدينا نهر ونهار . وفي العبرية نهار أي نهر ونهارا . وفي البابلية نا - آ - رو أي نهر ، ونو - آو - رو أي نهار»[٤٥] . وأخيراً ترى دراوور في صلة المندائيين بالعراق أنهم «يرجعون مصدر جميع الأنهار والمياه إلى مصدر أصلي واحد ، هو نهر أبيض نقي في جبال تدعى كريمله ، وهذا المصدر الأصلي هو فراش زيوا ، أو فرات زيوا ، أي نهر الفرات ، وليس الأردن»[٤٦] . والأكثر دلالة على علاقة المندائيين بدجلة والفرات لا بالأردن هو ارتباط القيامة والعذاب بجفاف النهرين . جاء في «الكنزاربا» : «كل مَنْ عملَ باطلاً سيبقى هنا . . . مكبلاً بعذاب ربه إلى أن يجف الفرات من منبعه إلى مصبه . ويجري دجلة خارج مجراه ، إلى أن تجف جميع المياه في البحار ، وفي الجداول والأنهار والعيون والآبار بعدها»[٤٧] .

تبقى الإشارة ، في سياق الحديث حول اقتران الماء بالضياء ، إلى تسمية موقع المندائيين الجغرافي الأهوار ، حيث الشمس مشعة طول فصول السنة ، واتصال ذلك بمعنى

(٤٤) المصدر نفسه ، ص ٣٥ - ٣٦ .
(٤٥) المصدر نفسه .
(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٣٧ .
(٤٧) الكنزاربا اليسار (ترجمة بغداد) ، التسبيح الثامن ، ص ٦٤ .

بلاد سومر فهي : الأرض المضيئة ، ومعنى الهور : البياض . تكشف هذه التسمية عن أصل مندائي قديم بالمنطقة . قال يعقوب سركيس : «إن لفظة هوارة ليست بعربية ، وجوزت لنفسي الظن أنها آرامية ، فاستطلعت الأب انستاس (الكرملي) فوافقني على أنها كما ظننتها ، وعلى أن آراميتها صابئية ، وأن معناها الأبيض والجص والجير والحوارى ، وعرفت بعدئذ أنها الواردة في السريانية والعبرية مع إبدال حرفها الأول بحاء مهملة وخا منقوطة»[٤٨] .

أما في العربية فتسمى المنطقة بالبطائح والآجام ، «واسمها في هذا الوقت (القرن الرابع الهجري) في ديوان السلطان : آجام البريد وأخراب جوخى»[٤٩] . وربما عرفت بالجامدة أيضاً . وليس بين التسميات العربية تسمية «هور» ، ولم تتردد التسمية الأخيرة إلا في العصر العباسي المتأخر ، بعد تمكن اللغة العامية من التواجد إلى جانب الفصحى . جاء ذكر الهور في كتب الأقدمين ومنها في بيت للشاعر مزيد الخشكري ، في عصر الناصر لدين الله (ت ٦٢٢هـ) ، كما سيأتي ذكر ذلك . وربما من آثار المندائيين في الأهوار تسمية القرية أو الجباشة «طهيثا» الآرامية ، وهي «قرية تائهة لوجودها بين الأهوار»[٥٠] . وما ذكره الطبري (ت٣١٠هـ) ، في سياق روايته لأحداث ثورة الزنج بالبصرة والعمارة ، مناطق بالأهوار باسم طهيثا ، وذكر مدينة ونهراً بهذا الاسم . ولقب أحد قادة الزنج بالروهي[٥١] ، وهو إشارة واضحة إلى تشبيه هذا القائد الأسود بكائن الظلمة المندائي الرهيب الروهة .

عُرف الصابئة المندائيون بارتباط طقوسهم بالماء ، إذ نحت أسمهم من عملية الارتماس في الماء الجاري ، ويسمى مصبتة ، وهو مأخوذ من صبأ الآرامية ، أي اغتسل . أما أن اشتقاق اسمهم من الضياء فلم يطرحه حديثاً ، على حد علمي ، غير الأب انستاس الكرملي ، ومن بعده طرحه الشيخ محمد جواد مَغنيّة . قال الأب : «إن الصابئة عندي مشتقة من صبأ ، لفظة قديمة من عهد أن كانت اللغات السامية لغة واحدة ، أو لغة مختلطة ومشتركة بين عامة الساميين ، ومصحفة عن ضوأ ، التي قلبها العرب في أصل لغتهم إلى كلمة ضاء . ولا جرم أنه وجد زمان قبل الزمان الذي دونت فيه اللغة وقواعدها ، بقرون كثيرة ، أمور لغوية عربية تقربها من سائر أخواتها السامية ، وهي اليوم قد فقدت أو قد أُميتت ، أو قد انقرضت ، أو قد عفت آثارها ، ولم يبق منها إلا غيض من فيض أو قيض من بيض . ولفظة الصابئة هي من هذا القبيل . فمعنى الصابئة إذن : عبادة الضيائية أي الأجرام المضيئة ، وهي عبادة الكواكب والأجرام السماوية ، ومثل ضاء : صبأ ، ومثل أضاء : اصبأ ، وسائر المعاني العربية المتفرعة

(٤٨) سركيس ، مباحث عراقية ، ٢ ص ١٠٥ - ١٠٦ .
(٤٩) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٣٧ .
(٥٠) علي الشرقي ، بعض مدن البطائح القديمة وقراها ، مجلة لغة العرب ١٩٢٧ .
(٥١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، السنة : ٢٦٢ و٢٦٧ .

مأخوذة من نشوء، فتأمل»[٥٢]. والكرملي إذ نسب هذا الرأي إلى نفسه بعبارة «إن الصابئة عندي مشتقة من صبأ . . .» قد سبقه إليها ابن قيم الجوزية[٥٣]. ولا حاجة للكرملي بهذا الإدعاء، إلا إذا كان قد ورد من باب توارد الخواطر، وهذا بعيد.

ما ذهب إليه ابن قيم الجوزية، والأب الكرملي، والشيخ مَغنيّة بأن اسم الصابئة منحوت من الضياء قد عكس واقع الحال، من دون تعارض مع علاقة التسمية بالتعميد في الماء. فالضياء عندهم بعد الماء في الوجود، والحي العظيم هو واجد الماء الأول. وقد سبق وأشرنا إلى التوافق في المعاني بين النهر والنهار. وبالتالي بين الماء والضياء. لذا لا يستحق الماء ولا الضياء العبادة من قبلهم، لأنهما موجودان بفعل واجد، ولا سيما أن (ضوأ) لا تعني عبادة الكواكب المضيئة، بل تعني قولهم بالضياء العظيم، أو بحر النور والأثري. وهي كائنات نورية سابحة في عالم النور النقي.

ورد في «الكنزاربا» ما نصه: «سمح لي العظيم بعظمته أن انشر الضياء، العظيم سمح أن انشر النور، وأن انشر الضياء»[٥٤]. هناك نصوص مندائية بليغة تحذر من عبادة الكواكب والنجوم، منها مثلاً: «لم أسجد لربين»[٥٥]. بينما الكواكب والنجوم متعددة. وقولهم بالضياء: «يا أصفيائي: إلبسوا الأبيض، واكتسوا الأبيض. . ألبسة الضياء وأردية النور. واعتموا بعمائم بيض كالأكاليل الزاهية. وانتطقوا بأحزمة الماء الحي، التي ينتطق بها الأثريون، وانتعلوا. واحملوا بأيديكم صولجانات مثل صولجانات الماء الحي، التي يحملها الأثريون في بلد النور»[٥٦]. عموماً، كل كلمات هذا النص المقدس أشارت إلى استخدام الضياء وليس إلى عبادته.

وإن ذكرهم المبشر الأمريكي (*Zwemer*) بعبدة النجوم، نقلاً عن نص يعود تاريخ نشره إلى ١٨٩٤، وصف أحد طقوسهم بالقول: «يسير عبدة النجوم رجالاً ونساءً قبيل منتصف الليل ببطء بمحاذاة النهر، متجهين إلى المشكنة (المندي)». يرفض صابئة تلك الفترة والحاليون «بغضب اتهامهم بأنهم من عبدة النجوم، ويؤكدون بأن نجوم السماء تلعب في حياتهم نفس الدور الذي تلعبه تقريباً في حياة شعوب الشرق الأخرى، فهي تستخدم عند قراءة طالع المواليد الجدد، أو عند تحديد الأيام أو الساعات المباركة للبدء بإنجاز أية قضية هامة كالسفر، أو بناء بيت، أو ما أشبه»[٥٧].

---

(٥٢) مجلة المشرق، حزيران ١٩٠١.
(٥٣) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ١ ص ٩٤.
(٥٤) الكنزاربا اليمين، ص ٦١.
(٥٥) المصدر نفسه، ص ٨٤.
(٥٦) المصدر نفسه، ص ٢٤.
(٥٧) آداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ص ٢٥٤ و٢٦٩.

كتبهم المقدسة

أبدى أكثر من باحث ، في شأن المندائيين ، صعوبة البحث في كتبهم الدينية ، بسبب تاريخها المجهول وموضوعاتها الشائكة . فـ«الكنزاربا» كتاب أُنزل بواسطة هيبل زيوا (جبرائيل) على آدم وشيت وإدريس ونوح ، كمجموعة من الصحف نزلت بفترات مختلفة . إلا أن أسماءً وأحداثاً عديدة دخلت في الكتاب تصل إلى زمن يحيى بن زكريا ، وعيسى بن مريم . ورغم أن الصابئيين يعتقدون أن كتاباً من كتبهم نزل على يحيى بشهادة القرآن : «يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً»[٥٨] . إلا أن المفسرين المسلمين كافة يشيرون إلى أنه كتاب «التوراة» ، لا الكتاب المندائي . وهنا يأتي السؤال هل نزل التوراة مرة أخرى ، وكلن قد نزل على النبي موسى؟

أورد أبو فرج النديم أموراً هامة لها صلة بكتاب الصابئة المقدس . ذلك الكتاب الذي رفعه رئيس كهنتهم دنقا عند دخول العرب المسلمين العراق[٥٩] ، مبيناً لقائد الجيش أن قومه من أهل الكتاب . قال المترجم أحمد بن عبد الله بن سلام مولى هارون الرشيد : «ترجمتُ هذا الكتاب من كتاب الحنفاء ، وهم الصابيون الإبراهيمية[٦٠] ، الذين آمنوا بإبراهيم عليه السلام ، وحملوا عنه الصحف ، التي أنزلها الله عليه ، وهو كتاب فيه . إلا أني اختصرت منه ما لابد منه ليعرف به سبب ما ذكرت منه اختلافهم وتفرقهم . وأدخلت فيه ما يحتاج إليه من الحجة في ذلك من القرآن والآثار ، التي جاءت عن الرسول (ص) وعن أصحابه ، وعن مَنْ أسلم من أهل الكتاب»[٦١] . وبهذا يكون الكنزاربا قد تُرجم إلى العربية في أيام هارون الرشيد ، وإن عمد المترجم إلى الإضافة عليه من نصوص القرآن أو الحديث ، ثم اختفى أثره . وحرص المندائيون على ترك ترجمته مرة أخرى حتى العام ١٩٩٧ ، ليظهر في ترجمة ، صدرت ببغداد ، شوهتها صياغة الشاعر المندائي عبد الرزاق عبد الواحد . أخبرني الريش أمة الشيخ عبد الله نجم : كانت كفر في الدين ، وهي جريمة بحق ديننا وكتابنا ومقدساتنا .

---

(٥٨) سورة مريم ، ١٢ .

(٥٩) رومي ، الصابئة ، ص ١٩ عن كتاب «حران كويثا» الصابئي . ذكر لي رجل دين كبير ، حسب الرواية التي لم تترجم إلى العربية لخطورتها ، أن أنوش دنقا قتل في بداية الدعوة الإسلامية ، وجعلوا منه مرمى الشيطان بمكة لدوره في تعاليمها .

(٦٠) أشارت هذه النسبة ، حسب رجال الدين الصابئة بعد الاستفسار منهم ، إلى برهم الملاك النوراني وليس لإبراهيم الإنسان ، وهم في دعاء التعميد التالي :«بسم الحي ربي اصطبغت بصبغة إبراهيم الكبير ابن القدرة صبغتي تحرسني وتسمو بي إلى العلا»(مراني ، مفاهيم مندائية) يعنون بإبراهيم الكبير الملاك المذكور ، ولا يستبعد أن يكون إبراهيم المشترك بين الأديان هو برهم الملاك ، جسده الاخباريون بشخص إبراهيم النبي المعروف .

(٦١) النديم ، الفهرست ، ص ٢٤ .

وأضاف في لقاء خاص معه : إن لديه ترجمة بالعربية يحتفظ بها عند ولده الشيخ رافد ، لكنها تحتاج إلى صياغة . وقد كشف المترجمان يوسف قوزي وصبيح مدلول السهيري مساوئ صياغة الشاعر عبد الواحد اللغوية في الكتاب . قالا : «تلاعب بنص جنزاربا الذي ترجمناه إلى العربية من أصله المندائي مباشرة ، وهذا أمر مؤسف حقاً . لأن بعض ما نشر منه صياغته بعيدة كثيراً أو قليلاً أحياناً عن نص الترجمة الذي نحن أنجزناها»[٦٢] .

قال أحمد بن سلام أيضاً : «ترجمتُ هذا الكتاب والصحف والتوراة والإنجيل ، وكتب الأنبياء والتلامذة ، من لغة العبرانية والصابية وهي لغة أهل الكتاب إلى اللغة العربية ، حرفاً حرفاً . ولم اتبع في ذلك تحسين لفظ ولا تزيينه مخافة التحريف (اعترف في الرواية السابقة بإضافة نصوص إسلامية) . ولم أزد على ما وجدته في الكتاب الذي نقلته . ولم أنقص إلا أن يكون في بعض ذلك من الكلام ما هو متقدم بلغة أهل ذلك الكتاب»[٦٣] . وذكر مولى هارون الرشيد الكتب السماوية وما ادعته الصابئية منها ، منذ ذلك الزمان ، بالآتي : «جميع ما أنزل الله تعالى من الكتب مائة كتاب وأربعة كتب . من ذلك مائة صحيفة أنزل الله تعالى فيما بين آدم وموسى . فأول كتاب منها أنزله جل اسمه صحف آدم عليه السلام ، وهي إحدى وعشرون صحيفة . والكتاب الثاني أنزله الله على شيث عليه السلام ، وهي تسع وعشرون صحيفة . والكتاب الثالث الذي أنزله الله تعالى على أخنوخ (مُصحف من الاسم المندائي دنانوخت) وهو إدريس عليه السلام ، وهو ثلاثون صحيفة . والكتاب الرابع أنزله جل أسمه على إبراهيم عليه السلام وهو عشر صحائف»[٦٤] .

إن رواية النديم عن مولى هارون الرشيد تجعلنا نشكك فيما ذهب إليه الكرملي إلى أن تاريخ كتابة «الكنزاربا» كان بداية القرن الثامن الميلادي ، ولا ندري لماذا السنة (٧٠٨ الميلادية) بالذات ، وكيف عده مترجم الرشيد من الكتب الأولى . وغير ما جاء في «الفهرست» ، عن مولى الرشيد ، ذكر ابن أبي أصيبعة أن المحسن بن إبراهيم بن هلال الصابئ ، مصنف كتاب «شرح مذهب الصابئي» ، ترجم كتاباً إلى العربية بعنوان «السور والصلوات التي يصلي بها الصابئون»[٦٥] . ولا يستبعد أن يكون أحد كتبهم الحالية .

والتي هي : «كنزاربا» (الكنز العظيم) ، «سيدره أد نشماثه»(كتاب الأنفس) ، «النياني» (ترتيل وأناشيد) ، «القلستا» (أصول الزواج) ، «ترسو الف شياله» (اثنا عشر ألف سؤال) ، «حران كويثا»(قلعة حران ، كتاب تاريخي) ، «المه ريشايه» (العالم الرئيس ، تكوين

---

(٦٢) توضيح حول ترجمة كتاب جنزا ربا ، جريدة الزوراء ، ٣٠ مارس «أذار» ٢٠٠٠ .

(٦٣) النديم ، الفهرست ، ص ٢٤ .

(٦٤) المصدر نفسه ، ص ٢٤ – ٢٥ .

(٦٥) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢ ص ١٩٩ .

العالم) ، «مصبته هيبل زيوا»(عماد الملاك هيبل زيوا بعد عودته من عالم الظلام) ، «ديوان أباثر» (ميزان الأرواح) ، «دراشه اد يهيا» (تعاليم يحيى) ، «تفسير البغرا»(تفسير الجسد) ، «سفر ملواشه» (تفسير الأسم ، كتاب تنجيم) ، «زرستا» (الحارسة ، كتاب تداوي من كائنات الظلام) ، «القماهي» (حروز تكتب للأطفال) ، «شرح بارونا»(شرح اقامة الأقداس على أرواح الموتى)(٦٦) . غير أن كتاب «الكنزاربا» قد احتوى بعض هذه الكتب بين دفتيه وفي قسميه ، اليمين واليسار ، مثل كتاب «تعميد هيبل زيوا» وكتاب «تعاليم يحيى» وغيرها .

تعتبر الحروف الصابئية ، في الكتب المذكورة وكتب الطلاسم ، مقدسة . «يمثل كل حرف من الحروف بالنسبة إلى قوة من قوى الحياة والنور ، والحروف تبدأ بـ أ وتنتهي بـ أ . وهم يقولون : بأنهما يمثلان كمال النور والحياة ، وأن هذا الكمال لم يخلق بذاته ، بل خلق بأمر من الله سبحانه وتعالى»(٦٧) . وإذ كانت الحروف المندائية مقدسة فحبر الكتابة من القداسة أيضاً أن لا يصنعه غير الكهنة ، وأن لا يصلح لرسم حروف غير الحروف الدينية . «ولكل كاهن تقريباً تركيبه الخاص لعمل الحبر (ديوثا) ، الذي يحفظ على شكل بلورات تذاب في الماء ، حين يراد استعمالها»(٦٨) .

ويُحضر الحبر المقدس حسب الوصفة التالية : «امزج الغراء بماء النهر ، وأتركه إلى أن يذوب . ثم اغله إلى درجة التبخر لمدة ستة أيام . واسحقه في اليوم السابع . واخلطه بمسحوق الفحم ، بنسبة مثقال واحد من الفحم إلى خمسة وعشرين مثقالاً من الغراء لمدة أربعة إلى خمسة أيام . أمزجه بالماء إلى أن يصبح عجينة . ثم بعد غليانه يصير على شكل بلورات تمزج بماء النهر لعمل أكبر . وينبغي أن يتلى عليه دعاء : اسوثة ملكه ، صلاة التسليم»(٦٩) . تذكر هذه الطريقة بما كان يفعله الوزير الخطاط ابن مقلةِ في تحضير حبره من سُخام النفط ، بأخذ «ثلاثة أرطال ، فيجاد نخله وتصفيته ، ثم يُبقى في طنجير ، ويصب عليه الماء ثلاثة أمثاله ، ومن العسل رطل واحد ، ومن الملح خمسة عشر درهماً ، ومن الصمغ المسحوق خمسة عشر درهماً ، ومن العفص عشرة دراهم ، ولا يزال يساط على نار لينة ، حتى يثخن جرمه ، ويصير في هيئة الطين ، ثم يترك في إناء ويرفع إلى وقت الحاجة»(٧٠) . وأضاف آخرون شيئاً من

---

(٦٦) رومي ، الصابئة ، ص ١١٧ – ١١٨ .

(٦٧) المصدر نفسه ، ص ١٢١ .

(٦٨) دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ٦٩ .

(٦٩) المصدر نفسه .

(٧٠) القلقلشندي ، صبح الأعشى ٢ ص ٤٣٠ وما بعدها . وطريقة أخرى ، تناسب الورق العادي ، يذكرها صاحب «صبح الأعشى» وموادها : العفص الشامي والآس والماء والصمغ العربي والزاج القبرسي . ويضاف إليه دخان من أجل السواد ، والعسل من أجلِ حفظه فترة طويلة ، والصبر كمادة شديدة

الكافور لتطييب رائحته ، وشيئاً من الصبر لمنع الذباب من الوقوع عليه . وذكر القلقشندي : هناك من الحبر ما لا يتعامل معه السُخام والنفط . ومَنْ يدري لعله الحبر المقدس كما يصنعه الكهنة المندائيون ، فالنفط مادة غير مرغوب فيها ، وتعد من المواد المنحوسة في التاريخ .

تقليدهم الديني

نجد عند عبد الحميد بكر عبادة (ت١٩٣٠م) ، معلومات قيمة في الشأن المندائي ، وهو على حد علمي أول عراقي صنف فيهم كتاباً بالعربية صدر العام ١٩٢٧ ، معتمداً على معلومات استقاها من الكنزفرا ، أو الكنزبرا(درجة دينية عليا تعني مفسر وخاتم الكنزاربا) أنذاك الشيخ دخيل بن الشيخ عيدان (١٨٨١-١٩٦٤) بالناصرية . لكنه كما يبدو لم يلتزم بما قاله الشيخ المندائي حرفياً . قال عبادة حول تسمية الصابئة : «قالوا : إنهاكلمة سريانية معناها الغسل والوضوء ، ولها مناسبة معهم ، وأن أصل تسميتهم مندايي أي القديم»[٧١] . لذا كان عنوان كتابه «مندائي أو الصابئة الأقدمون» . ومن مباحثه : «هل هم كلدانيون أم سريانيون»؟ «هل هم عبدة نجوم»؟ «مساكنهم القديمة» . «اعتقادهم في بداية الخلق» .«ولادة يحيى ووفاته» . «هل يجوز للمسلمين أكل ذبيحتهم»؟ «تعميدهم» . « اعتقاد الصابئة في الله» . «كيفية تعميد الأطفال» . «الرشامة : أى الاغتسال والوضوء» . استغرق الكتاب (٦٦) صفحة . وقدمت مجلة «لغة العرب» عرضاً مختصراً له في عام صدوره . ثم أعدنا ، بعد التحقيق والتقديم ، نشر الكتاب (٢٠٠٣) .

مثلما اختص الصابئة المندائيون بحل مشكل زواج أولاد آدم من أخواتهم بزواج أولاد آدمنا من بنات آدم كسيه أو آدم الخفي ، وهنَّ من سكنة مشوني كشطا ، أختصوا بالقول بخطيئة ذبح الحيوان ، فأوجدوا صلاة عُرفت بصلاة أو دعاء الاستغفار ، أو مغفرة الذبح ، وهو طقس يمارسه الذابح ، دون أن يعمدوا إلى تحريم اللحوم ، مع وجود نزوع إلى ذلك ، وعلى وجه الخصوص لدى المتدينين والكهنة[٧٢] . جاء في دعاء الاستغفار : «ليباركني اسم الله المتعال ،

= المرورة لطرد الذباب . أما الحبر المناسب للرق فيكون براقا بلا دخان . وكتابة فواتح الكلام قد لا تكون بالحبر العادي ، بل تكتب بالذهب ، بعد أن يحل ورقه المستعمل في الطلاء «في شراب الليمون الصافي النقي ويغسل من جوانب الإناء حتى يمتزج الماء والشراب ، ويترك ساعة حتى يرسب الذهب» ، ويضاف إليه قليل من الحبر (الليقة) أي اللاصق بالدواة ، ويضاف إليه الزعفران والصمغ المحلول . أما المغرة العراقية فتكتب فيها «نفائس الكتب ، وربما كتب بها عن الملوك في بعض الأحيان» (صبح الأعشى) . ومن ملحقات الحبر آلة المسقاة ، والملواق لتحريك الحبر في المحبرة .

(٧١) عبادة ، كتاب مندائي أو الصابئة الأقدمون ، ص ٥ .

(٧٢) آداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص ٢٦١ . دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ١٠١ .

واسم الملك ملكا مندادهيي المقرب من عرشه . إنني قد أديت عمل الذبح بسكين حديدية بأمر من الله تعالى . وأنه غافر لذنوبي . اللهم أغفر لي ذنوبي وأرحمني . ولا تحرمني من شفاعتك . ليبارك اسم المتعال ، وملكا مندادهيي فلان بن فلانة دائماً»[٧٣] .

من شعائر المندائية الثابتة : العماد والصلاة والصوم والصدقة . والعماد المندائي يمارس بثلاثة أنواع وهي : «مصبوتا» (العام) ومن مستلزماته الماء الجاري ، الذي عوض عنه في ما بعد بأحواض الماء ، التي تقام عادة داخل المندي ، مع إكليل الريحان أو الآس إشارة إلى الحياة والطيب . وكل عماد يشترط الملابس الدينية التي أشرنا إليها[٧٤] . وخلاف الأديان المعروفة الأخرى يقول المندائي عند المصبوتا : «رسمي لا يكون بالنار ، ولا بالزيت ، ولا بالمسح . رسمي بالماء العظيم ماء الله الحي» . والنوع الثاني العماد الشخصي ويسمى «طماشة» ، وهو مجرد اغتسال من النجاسات كالجنابة وغيرها . والنوع الثالث يسمى «رشامة» ، وهو بمثابة الوضوء ، ويمارس ثلاث مرات يومياً ، وتغسل خلاله أعضاء الجسم الخارجية .

وصلاة المندائي عبارة عن قراءة وتبريكات ، مع الانحناء كلما وردت كلمة السجود في النص المقروء ، كقولهم : «قوموا أيها المسلمون المؤمنون ، اسجدوا وسبحوا لله العظيم» . وإضافة إلى الصلاة الجماعية ، التي تقام في المندي ، هناك صلاة شخصية يصليها المندائي في مناسبات معينة . ويستقبل المصلي عند الصلاة جهة الشمال ، وهي القبلة المندائية ، اعتقاداً أنها الجهة المباركة ، حيث مكان الحق مشوني كشطه . وإن سألت أحد العارفين منهم حول السبب اختصر لك إجابته بالقول : لأن أعذب النسائم تهب من جهة الشمال؟ . أما الصدقة من المال فتقدم كهبة لأبناء الملة المحتاجين ، ومن شروط ثوابها أن تقدم سراً ، والإعلان عنها يُعد خطيئة تعادل خطيئة الكفر!

والصوم عند المندائية ستة وثلاثون يوماً متفرقة على مدار السنة ، تختم عادة بالأعياد . ومن تعاليمه : «امسكوا أفواهكم عن قول الكذب . . . لأن الذي يحل في قلبه البغض ليس مسلماً»[٧٥] . والامتناع عن أكل اللحوم فقط . ويحرم في أيامه ذبح الحيوان . ويبارك الدين الصابئي الزواج والخصب ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، معتبراً إياه فريضة من فرائض الدين ، ولذلك نهى بشدة عن العزوبة ، بما في ذلك رجال الدين . وبخصوص ذلك تقول التعاليم المندائية : «وأمرنا أن اتخذوا لأنفسكم أزواجاً تعمر بكم الدنيا»[٧٦] . وعند الزواج

---

(٧٣) برنجي ، الصابئة المندائيون ، ص ٢٣٧ .

(٧٤) مجلة مندايي ٤/١٩٩٤ .

(٧٥) مراني ، مفاهيم صابئية مندائية ، ص ١٤٥ .

(٧٦) المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

يجري التأكيد على العذرية ، فعقد زواج الثيب لا يتطلب العماد وأداء قسم الإخلاص من قبل الزوجين أمام رجل الدين ، بقدر ما يتطلب العقد والشهادة أمام رجل دين مُنع من إجراء الطقس الديني ، لسبب ما أخل بكهانته ، ويعرف بين المندائيين بـ«أبيسق»[(٧٧)] . ودرجات رجال الدين حسب التدرج هي : الشنكده ، الحلالي ، الترميده ، الكنزابرا ، ريش أمه (الكاهن الملك) ، والرباني ، ولم يحصل عليها سوى يحيى المعمدان .

فقهاء الإسلام

لم يعترف فقهاء المسلمين للصابئة المندائيين ما اعترف لهم به القرآن الكريم ، كأهل دين وكتاب ، في ثلاث من سوره . وهي : «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[(٧٨)] . والآية تتكرر بالصيغة نفسها : «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون (هكذا وردت) والنصارى مَنْ آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[(٧٩)] . وصيغة أخرى أضاف فيها المجوس والمشركين ، «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد»[(٨٠)] .

جاء في أسباب نزول الآية الأولى ، وهي سورةمن البقرة : أنها «نزلت في أصحاب سلمان الفارسي . لما قدم سلمان على رسول الله (ص) جعل يخبر عن عبادة أصحابه واجتهادهم . وقال : يارسول الله كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنك تبعث نبياً . فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال رسول الله : يا سلمان هم من أهل النار . وهم حسب الرواية ، أصحاب الدير ، ولما شعر الرسول بضيق سلمان عندما قال : «وأظلمت عليّ الأرض» أنزل الله : إن الذين آمنوا والذين هادوا . . . وتلا قوله : ولا هم يحزنون»[(٨١)] . وروي عن عبدي الله ابن مسعود وابن عباس وغيرهما : «نزلت هذه الآية في سلمان الفارسي ، وكان من أهل جندي سابور من أشرافهم»[(٨٢)] .

---

(٧٧) دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ٢٥٠ . مقابلة خاصة مع ريش أمة عبد الله نجم .

(٧٨) سورة البقرة ٦٢ .

(٧٩) سورة المائدة ٦٩ .

(٨٠) سورة الحج ١٧ .

(٨١) الواحدي ، أسباب النزول ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٨٢) المصدر نفسه .

وهنا لا يقصد بديانة سلمان المسيحية أو اليهودية ، فالكثير من أتباعهما دخل الإسلام قبله ، وجاءت فيهما نصوص قرآنية كثيرة ، لم تحتج إلى تدخل أحد ، سلمان أو غيره . كما لا يقصد فيها المجوسية ، وإن كانت منتشرة في بلاد فارس حيث انحدار سلمان . لأن أسباب النزول المذكورة خاصة بالآية (آية ٦٢) من سورة البقرة ، والمجوس لم يذكروا إلا في سورة الحج (آية ١٧) . لهذا ، فالاحتمال الوارد أن سلمان الفارسي واسمه الحقيقي (ما به بن بوذخشان بن ده ديره)[٨٣] كان صابئياً مندائياً ، فللدين المذكور وجود ببلاد فارس ، والعراق وإيران كانا تحت حكم واحد .

يروى عن عائشة أنها قالت : «كان لسلمان مجلس من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ينفرد به بالليل حتى كاد يغلبنا على رسول الله»[٨٤] . وروي عن ابن بريدة عن أبيه أن النبي قال : «أمرني ربي بحب أربعة ، وأخبرني أنه سبحانه يحبهم : علي ، وأبو ذر ، والمقداد وسلمان»[٨٥] .

فربما كانت هذه العلاقة سبباً في ورود شيء من اعتقادات المندائيين في الإسلام . فهم أول الأحناف ، وأن إبراهيم الخليل أحد الكبار في الدين المندائي ، ولعل تسمية الإسلام لها جذر مندائي . فقد ورد في أحد أدعيتهم أو صلاتهم «يا شلماني وامهيمنى . . يا امهيمنى وشلماني . . لا تيفخون من مملا لخون»[٨٦] ، ومعناها : «أيها المسلمون المؤمنون ، وأيها المؤمنون والمسلمون ، لا تتراجعوا عن عهدكم الذي عاهدتم الله عليه» ، و«طوبى لعباد الحق المسلمين المؤمنين . . . طوبى للمسلمين المبتعدين عن السوء»[٨٧] .

عبارات عديدة أخرى تضمنت مفردة المسلم أو المسلمين . وبالتالي لا أجد سبباً يمنع من إشارة الآية : «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[٨٨] إلى مندائية إبراهيم الخليل أو برهم الملاك حسب التعبير المندائي . ورغم أن هادي العلوي لم يشر إلى صلة لسلمان بالمندائيين ، وأكد ما جاء في سيرة سلمان أنه كان مجوسياً ثم مسيحياً ، إلا أنه بلا قصد أعطى إشارة إلى تلك الصلة ، وهو ما يتعلق بالموقف

(٨٣) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ٢ ص ٢١٧ . غير أن آخرين ذكروا اسم سلمان الفارسي بـ(روزبه) راجع العلوي ، شخصيات غير قلقة في الإسلام ، ص ١٥ .

(٨٤) ابن عبد البر ، الاستيعاب ٢ ص ٦٣٦ .

(٨٥) المصدر نفسه .

(٨٦) برنجي ، الصابئة المندائيون ، ص ٤٢ .

(٨٧) مراني ، مفاهيم صابئية مندائية ، ص ٢٤ . ترجمة عن النسخة الألمانية للكنزا ربا ، إلا أن الترجمة العربية (بغداد ٢٠٠٠) حورت العبارة إلى «الكاملون المؤمنون» .

(٨٨) سورة آل عمران ، ٦٧ .

من الكنز، يفهم ذلك من قوله: «كنت رجحت في دراستي لمسألة تحريم الاكتناز أنها وقعت بتأثير من سلمان»[٨٩]. فكان سلمان لا يسكن بدار، ويأكل من عمل يده بسف الخوص[٩٠] مع أنه كان أمير المدائن. وقد يعزز هذا الرأي أخبار زهد سلمان الفارسي المتماثل مع زهد كهنة المندائيين.

ورد تحريم الاكتناز في الآية: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون»[٩١]. وتعد سورة التوبة أو براءة، التي وردت فيها آية الكنز، من أشد السور تهديداً ووعيداً، وهي السورة الوحيدة التي لم تستهل بالبسملة «بسم الله الرحمن الرحيم». وحين سُئل الإمام علي بن أبي طالب عن السبب قال: «لأنها أمان وبراءة نزلت بالسيف»[٩٢].

وبالمقابل هناك أكثر من نص ورد في «الكنزاربا» يحرم الكنز. منها: «وأن حُب الذهب والفضة وجمع الأموال صاحبه يموت ميتتين في موت واحد»[٩٣]، و«لقد ولعت بالفضة والذهب فألقيا بك في لجة اللهب»[٩٤]، و«لقد شغلني ذهبي.. وشغلتني فضتي، ذهبي رماني في الجحيم وفضتي أسكنتني في ظلام بهيم، وحليّ ومرجاني.. آليت أن يصادقاني.. فأي شر علماني»[٩٥].

فسر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) تسمية الصابئين، حسب ما ورد في الآية (٦٢) من سورة «البقرة» بكلام طويل نلخصه بالآتي:

١- أنهم ليسوا يهوداً، ولا نصارى، ولا دين لهم.

٢ - منزلتهم بين المجوس واليهود. ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم.

٣ - أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون لا إله إلا الله ولم يؤمنوا برسول الله. وهذا خلاف ما أضافه الرواة إلى حديث سلمان الفارسي مع النبي محمد، من أن قومه يؤمنون برسالته ونبوته.

---

(٨٩) العلوي، شخصيات غير قلقة في الإسلام، ص ١٩.
(٩٠) ابن عبد البر، الاستيعاب ٢ ص ٦٣٥.
(٩١) سورة التوبة أو براءة، ٣٤ - ٣٥.
(٩٢) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ١ ص ١٤٢.
(٩٣) كنزاربا اليمين، ص ٢٦٤.
(٩٤) كنزاربا اليسار، ص ١٢٧.
(٩٥) المصدر نفسه، ص ١٢٦.

٤ – يعبدون الملائكة ، ويصلون إلى القبلة ، ويصلون الخمس .

٥ – فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزبور .

٦ – قبيلة من نحو السواد ليسوا بمجوس ، ولا يهود ، ولا نصارى[٩٦] .

وما يخص الموصل فلعل المقصودين كانوا الأيزيديين ، فهم يقولون : لا إله إلا الله ، ولم يقروا بنبوة محمد . وقبل أن يحل فيهم الشيخ عدي بن مسافر الذي أدخل إلى دينهم ما أدخل من عقائد جديدة . وما يخص قراءة الصابئة للزبور فهي ما زالت شائعة بين العراقيين ، رغم عدم صحتها ، فهو من كتب اليهود ، جاء ضمن العهد القديم من الكتاب المقدس ، وورد تحت اسم «سفر المزامير» ، أو التسابيح عددها مئة وخمسون مزموراً ، لا علاقة لها بالصابئة المندائيين . يضاف إلى ذلك أن الزبور يعني الكتاب ، وكتاب الصابئة زبور «الكنزاربا» ، لا الزبور الذي غلب اسمه على مزامير داوود .

ليس بين النقاط التي أتى بها الطبري ، عن الإخباريين والمفسرين السابقين ، ما يشير إلى المندائيين الحاليين غير النقطة السادسة (قبيلة من نحو السواد ، ليسوا بالمجوس ولا اليهود ولا النصارى) . إن الجهل في تاريخ هذا الدين ، بسبب باطنيته ، جعل الطبري ينقل عن المفسر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت٢١١ هـ) عن سفيان الثوري : «الصابئون قوم بين اليهود والمجوس ليس لهم دين»[٩٧] . ولا نعتقد في الشرق ، منبع الأديان ، هناك قوم لا دين لهم! . ومَن يطلع على كتاب «الكنزاربا» ، وترجمات كتب المندائيين الأخرى مثل «ديوان أباثر» ، ورسوم الأفلاك ، والكائنات النورانية قد يعذر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) على الشطر الأخير من عبارته التالية : «قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة»[٩٨] .

ويذكر البغدادي (ت ٤٢٩ هـ) والشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) على لسان يزيد بن أنيسة الخارجي «أن الله عزّ وجلّ يبعث رسولاً من العجم . وينزل عليه كتاباً من السماء . وينسخ بشرعه شريعة محمد ، صلى الله عليه وسلم . وزعم أن أتباع ذلك النبي المنتظر الصابئون المذكورون في القرآن . فأما المسمون بالصابئة من أهل واسط وحرّان فما هم الصابئون المذكورون في القرآن»[٩٩] . تفصح هذه الرواية عن غموض أمر الصابئة عند الأولين إلى درجة أن يفكر أحدهم ببعثهم بعد إندثار وهم موجودون . لكن ما ذا يعني النص القرآني وفصله في الأديان (سورة البقرة والمائدة والحج) إذا كان لا يعني قوماً موجودين؟ هذا من جانب ، ومن

---

(٩٦) الطبري ، جامع البيان عن تأويل القرآن ٢ ص ١٤٥ – ١٤٦ .

(٩٧) الصنعاني ، تفسير القرآن ١ ص ٤٧ .

(٩٨) الزمخشري ، الكشاف ١ ص ٢٨٥

(٩٩) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٦٣ ، الملل والنحل ١ ص ٣٦ .

جانب آخر أن البغدادي والشهرستاني يذكران ذلك لابن أنيسة الخارجي كمخالفة وشذوذ ، وهما يعنيان أن صابئة واسط وحران هم المذكورون في القرآن .

إن غموض تسمية الصابئة وأحوالهم الدينية كان سببه ، كما أسلفنا ، باطنية أو سرية الطقوس والنصوص ، وهم قوم اعتادوا العيش تحت الاضطهاد من قبل الأديان الثلاثة . أشارت كثرة النصوص المندائية ضد اليهود إلى عذاباتهم من أهل هذا الدين ، المجاور لهم ببابل[١٠٠] . كما اعتبرتهم المسيحية نصارى منحرفين لابد من ارجاعهم إلى الجادة الصحيحة! وأصدر فقهاء المسلمين فتاوى قتل جماعي بحقهم ، أبرزها فتوى محتسب بغداد والقاضي والفقيه أبي سعيد الحسن بن يزيد الأصطخري (ت٣٢٨هـ) أيام القاهر بالله العباسي . روى الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) في سياق ترجمة الأصطخري : «أفتاه بقتلهم ، لأنه تبين له أنهم يخالفون اليهود والنصارى . وأنهم يعبدون الكواكب . فعزم الخليفة على ذلك ، حتى جمعوا بينهم مالاً كثيراً له قدر فكف عنهم»[١٠١] .

ذكرت فتوى القتل في المصادر الإسلامية الأخرى التي ترجمت لحياة الأصطخري ، ومنها «سير أعلام النبلاء» لشمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، وكان المفتي بالقتل من أبرز فقهاء عصره ، يعرف بفقيه العراق ، وتولى حسبة بغداد ، فأحرق مكان الملاهي ، وكان شافعي المذهب . وجاء في رسالة رئيس ديوان الجوالي ، محمد بن يحيى بن فضلان (ت٦٣١هـ) ، الخاصة بأهل الذمة إلى الناصر بالله العباسي ، فقرة تذكر بفتوى الأصطخري في الصابئة والحث على تطبيقها : «الصابئة قوم من عبدة الكواكب ، يسكنون في البلاد الواسطية (بين الكوت والبصرة) لا ذمة لهم ، وكان في قديم الزمان لهم ذمة ، فاستفتى القاهر بالله أبا سعيد الاصطخري ، من أصحاب الشافعي ، في حقهم ، فأفتاه بإراقة دمائهم ، وأن لا تقبل منهم الجزية ، فلما سمعوا بذلوا له خمسين ألف دينار ، فأمسك عنهم ، وهم اليوم لا جزية عليهم ، ولا يؤخذ منهم شيء ، وهم في حكم المسلمين والأمر أعلى»[١٠٢] .

أفتى الأصخري بإراقة دماء الصابئة رغم أن إمامه ومؤسس مذهبه الإمام الشافعي قال في باب الجزية : «الصابئون والسامرة مثلهم يؤخذ من جميعهم الجزية . ولا تؤخذ الجزية من أهل الأوثان . ولا ممن عبد ما استحسن من غير أهل الكتاب»[١٠٣] . وأخذ الجزية من أهل دين

---

(١٠٠) الكنزاربا (طبعة استراليا) ملحق ، كلمة عن الدين المندائي لليدزبارسكي ، ص ٦٨٠ .

(١٠١) البغدادي ، تاريخ بغداد ٧ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ . لكن الأصطخري الذي أفتى بما ليس من فقه الشافعي قال له القاضي أبو العباس ابن سريح وهما في مناظرة : «أنت سألت عن مسألة فأخطأت فيها ، وأنت رجل كثرة أكل الباقلاء قد ذهبت بدماغك»(المصدر نفسه ٧ ص ٢٦٩) .

(١٠٢) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص٧٠ ، سيأتي نص الرسالة في الفصل الخاص بالمسيحية .

(١٠٣) ا لشافعي ، كتاب الأم ٩ ص ٢٩٣ .

ما يعني حرمة دمائهم . والأصطخري بفتواه خالف القرآن أولاً ، ثم خالف إمام مذهبه! ويصعب الاعتقاد أن الصابئة عبدوا الكواكب وكتابهم يقول : «باسم الحي العظيم ، أشرق نور الحي ، وتجلى منداديهي بأنواره ، فأضاء جميع الأكوان ، حطم ألوهية الكواكب ، وأزال أسيادها من مواقعهم»(١٠٤) . وكيف عبد المندائيون الأصنام والأوثان وكتابهم يقول : «من يقدم الضحايا والقرابين تعقد خطاه في جبل الظلام (جهنم) ، فلا يرى نور الله . أما من آمن وأتقى فله من النور مرتقى حتى يبلغ بلد النور»(١٠٥)؟ وهم قبل أن يُأمر الأصطخري باجتناب الخمور نهوا عن شربها بالقول : «وليعلموا أن الخمرة يوضع شاربها في قيود وأقفال ، وتثقل عليه السلاسل والأغلال»(١٠٦) .

وإذ أجاز الأصطخري ، كشافعي ، أخذ الجزية من المجوس لما ورد عن الرسول أنه أخذها من أهل البحرين ، وهم مجوس بشهادة عبد الرحمن بن عوف ، ثم أخذها عمر منهم ، فإن ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) ، وهو حنبلي المذهب ، قال : «الصابئة أحسن حالاً من المجوس ، فأخذ الجزية من المجوس تنبيه على أخذها من الصابئة بطريق الأَوْلى ، فإن المجوس من أخبث الأمم ديناً ومذهباً ، ولا يتمسكون بكتاب ، ولا ينتمون إلى ملة ، ولا يثبت لهم كتاب ولا شبه كتاب»(١٠٧) . وهذا اعتراف ضمني من فقيه حنبلي كبير في المذهب ، وتلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٦هـ) ، بكتاب أو شبه كتاب للصابئة . يضاف إلى ذلك أن الفقه الحنفي فضل الصابئة على المجوس في الزواج . جاء في «المختار على مذهب النعمان» : «يجوز تزويج الكتابيات والصابيات ولا يجوز تزويج المجوسيات والوثنيات»(١٠٨) .

صدرت فتوى القتل المذكورة ، في القرن الرابع الهجري ، بعد أن أجاز الفقه الحنفي ، ممثلاً بقاضي القضاة أبي يوسف (ت ١٨٢ هـ) ، في القرن الثاني الهجري التعامل مع الصابئة بأخذ الجزية منهم أسوة بـ «جميع أهل الشرك من المجوس ، وعبدة الأوثان ، وعبدة النيران والحجارة (من غير العرب) ، والسامرة»(١٠٩) . ورأي الإمام أبي حنيفة النعمان فيهم «أنهم ليسوا بعبدة أوثان ، وإنما يعظمون النجوم كما نعظم الكعبة»(١١٠) .

ويشترط أبو علي الماوردي الشافعي (ت٤٥٠هـ) في أخذ الجزية منهم «إذا وافقوا اليهود

---

(١٠٤) الكنزاربا اليمين ، ص ١١٧ .

(١٠٥) المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ .

(١٠٦) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ .

(١٠٧) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ١ ص ٩٨ - ٩٩ .

(١٠٨) مخطوط كتاب متن المختار على مذهب النعمان أبي حنيفة . جامعة هارفرد ، MS Arab 13 (14) .

(١٠٩) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٢٨ .

(١١٠) الآلوسي ، روح المعاني في تفسير القرآن ١ ص ٢٧٩ .

والنصارى في أصل معتقدهم ، وإن خالفوه في فروعه»[111] . وكم يبدو هذا الحكم في الصابئة مخالفاً للقرآن! فالقرآن ذكرهم كأهل دين مثلما ذكر اليهود والنصارى ، ولم يشترط موافقتهم لهذا الدين أو ذاك . ومَنْ يدرس كتاب المندائيين «الكنزاربا» ، ويقارنه بصوص القرآن ، ويدرس فقههم ويقارنه بلفقه الإسلامي سيجد الموافقة واضحة بين الديانتين . يضاف إلى ذلك كان الماوردي من أهل البصرة ، حيث موطن الصابئة ، ومعاينته لدينهم عن قُرب قد تبعده من الاعتماد على النصوص في شأنهم ، وبالتأكيد ستختلف فتواه فيهم .

لكن النصوص تحكم الفقهاء في الغالب ، فلا يهتمون بالواقع المعاش الذي قد يؤدي بهم إلى قاعدة صحيحة سار عليها بعض الفقهاء ، وهي تغليب المصلحة على النص . لذا لم يكلف أبو يوسف ، ولا الأصطخري ، ولا الماوردي وغيرهم أنفسهم ليحاولوا استقصاء حقيقة هذا الدين من كاهن أو خبير من أهله ، بدلاً من أعتبار أتباعه مشركين مجازين ، أو يصدرون فيهم حكم القتل ، أو تشترط عليهم موافقة اليهود والنصارى . هذه أهم آراء ومواقف الأقدمين ، ولنرَ ما قاله فيهم المعاصرون .

قال أبو الثناء محمود الآلوسي في «روح المعاني» : «وقيل هم موحدون يعتقدون تأثير النجوم»[112] . ويرى محمد الحسيني الشيرازي «فيهم غموض وخلاف ، وربما قيل عبدة نجوم»[113] . ويرى محمد حسين الطباطبائي أن عقيدتهم مزيج من المجوسية واليهودية مع أشياء من الحرانية . ولعل الطباطبائي أول المحدثين من فقهاء المسلمين ميز بين الصابئة الحرانيين والصابئة المندائيين ، وأكد أسباب نزول الآية (٦٢) من سورة البقرة في ديانة سلمان الفارسي السابقة[114] . ومع ذلك لم يأت الطباطبائي ، رغم بحثه المطول فيهم ، بشيء جديد على ما ورد في كتب الأقدمين .

ويعد محمد حسين فضل الله ، عن مؤرخين وكتاب مهتمين ، الصابئة فرقتين هما : المنديا ، أو نصارى يوحنا المعمدان ، وصابئة حران الوثنيين . ويذهب مستفيداً من بحوث أخرى مثل بحث «الصابئة المندائيون» لليدي دراوور ، إلى أن «الصابئة الذين ذكرهم القرآن إلى جانب اليهود والنصارى من أهل الكتاب يعدون من المنديا . ولا شك في أن اسم الصابئة مشتق من الأصل العبري (ص ب أ) أي غطس ، ثم سقطت الغين ، وهو يدل بلا ريب على المعمدانيين»[115] .

(١١١) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٤٣ .

(١١٢) الآلوسي ، روح المعاني في تفسير القرآن ١ ص ٢٧٩ .

(١١٣) الشيرازي ، تقريب القرآن إلى الأذهان ١ ص ٧٨ .

(١١٤) الطباطبائي ، الميزان في تفسير القرآن ١ ص ١٩٦ .

(١١٥) فضل الله ، من وحي القرآن ٢ ص ٦٩ . حسب ما ورد حول العلاقة بين مصطلح ناصورائي

ولعل آية الله فضل الله انفرد من بين علماء الدين والمفسرين بتحفظه على قبول نسخ الآيات التي ورد فيها اسم الصابئة بالآية : «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين»[١١٦] . قال : «نتحفظ على هذا الجواب ، لأن مدلول هذه الآية لا يتنافى مع مدلول تلك ، حتى نفرض نسخ الثانية للأولى . لأن الظاهر إرادة الإسلام بمعناه المصطلح ، كما يلوح ذلك من صدرها ، وهو الالتقاء على قاعدة الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح»[١١٧] . وهذا ما تقره الأديان المشار إليها في الآية جميعاً .

ويقترب محمد جواد مَغنيّة من الصواب بوصفه الصابئيين : «قوم يقرون بالله وبالمعاد وببعض الأنبياء . ولكنهم يهتدون بتأثير النجوم في الخير والشر ، والصحة والمرض . ومنهم طائفة في العراق الآن»[١١٨] . وعلى خلاف مَنْ اشتق تسمية الصابئة من صبأ العبرانية أي غطس وتوضأ ، وجد مَغنيّة أن التسمية مشتقة من «صبأت النجوم أي طلعت» . ويعدهم بأقدم الأديان في التاريخ . ومن دون الإشارة إلى مصدر معلومته ، نجده قد أخذها من ابن قيم الجوزية الذي قال في اشتقاق تسمية الصابئة : «صبأت النجوم إذا طلعت وصبأ علينا فلان إذا طلع»[١١٩] . ولا يستبعد أنه اطلع أيضاً على سلسلة المقالات التي نشرها الأب انستاس الكرملي في مجلة «المشرق» (١٩٠٠ - ١٩٠١) ، وذهب فيها إلى اشتقاق تسميتهم من الضوء ، كما سلف .

وأفتى آية الله أبو القاسم الخوئي في أمر الصابئة المندائيين ، عندما استفتي في أمر رجل صابئي أشهر إسلامه معتنقاً المذهب الجعفري ، ثم طالبته زوجته الصابئية بالنفقة في إحدى المحاكم الشرعية ببغداد ، قال : «الصابئي كان من أهل الكتاب كما هو الظاهر»[١٢٠] . وطرح آية الله علي الخامنئي في رسالة نشرت (١٩٩٩) جملة أمور ايجابية

= المندائي ، الذي يعني الحافظ للقوانين والأوامر الدينية ، وبين نسبة الناصري التي عرف بها السيد المسيح بن مريم ، يبدو السيد المسيح هو الصابئي المندائي وليس العكس . إذ يقول الصابئيون انه كان صابئياً بعد تعميد يوحنا المعمدان له ، وفق الحديث الذي ورد في كتاب «دراشة اديهيا» (أحاديث يوحنا) . وعلى ضوء ماورد تكون «كلمة الناصري التي لقب بها المسيح مأخوذة من الناصيروية أي التبحر بعلم الكهانة» لا بلدة اسمها الناصرة! (غضبان رومي ، مجلة التراث الشعبي العدد ١٠/ ١٩٧٤ . وقيل كان المسيح ناصورائياً ثم خرج عن دينهم ، وهم المنداذيين . و«قاد الناس إلى دين آخر» (دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ٤٢) .

(١١٦) سورة آل عمران ٨٥.

(١١٧) فضل الله ، من وحي القرآن ٢ ص ٦٩ .

(١١٨) مغنيّة ، التفسير الكاشف ١ ص ١١٧ .

(١١٩) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ١ ص ٩٤.

(١٢٠) رومي ، الصابئة ، ص ٥٣ .

بشأنهم . فلهم بإيران طائفة تعد بخمسة وعشرين ألف نسمة . لهذا نظر مرشد الدولة الإيرانية في أمرهم عن قرب ، باحثاً في كتبهم المترجمة إلى الفارسية والعربية . وربما كان أول فقيه لايعتمد النصوص الشرعية فقط ، ويطلع على كتبهم ويتابع ممارساتهم الدينية عن كثب . قال : «نتيجة البحث في النقطة الأولى : إن الأقوى والأظهر بحسب الأدلة أن الصابئين يعدّون من أهل الكتاب»[١٢١] .

ولأنه نظر في واقع هذا الدين ، لا فيما كتب وقيل ، نفى خامنئي أن يكون الصابئة ديانة متفرعة من الأديان الأخرى ، بل نظر إليها كديانة مستقلة . قال : «هل الصابئة يعدّون من شعب بعض الأديان الثلاثة : اليهود والنصارى والمجوس ، أو أنهم نحلة أخرى غير هؤلاء؟ والجواب على ذلك : قد علم من بعض ما ذكرنا في توضيح النقطة الأولى ، فلا دليل على ما قيل ، وقد مضى ما نقلناه من كلمات بعض الفقهاء ، من أنهم شعبة من اليهود ، أو أنهم مجوسيون ، وأمثال ذلك مما نقله في الجواهر عن غير واحد من الفقهاء كالشافعي ، وابن حنبل ، والسدي ، ومالك وغيرهم ، بل لعل مقتضى ما ذكرنا الجزم بخلافه»[١٢٢] .

ولعل الخامنئي في كلمته التالية قدم نقداً غير مباشر للفقهاء ، من الذين لم ينظروا في أمر هذا الدين ، وهو حي بينهم . قال : «الحق الذي ينبغي الاعتراف به هو أننا لا نعرف من المعارف والأحكام الدينية لهذه النحلة التاريخية ، والتي أصبح المنتمون إليها موجودين بين أيدينا وفي عقر بلادنا ، شيئاً كثيراً تسكن النفس بملاحظته إلى معرفة أصحابها ، والباحث في هذا الموضوع يجد في حقل البحث الموضوعي فيه فراغاً كبيراً لم يسدّ مع الأسف»[١٢٣] . وبعد الاطلاع على ما نشر من «درفش» (تعني الراية المندائية ، وهي اسم لصحيفة أو نشرة مندائية بإيران) قال الخامنئي : «فمن جملة عقائدهم التي يدعونها ويصرون عليها التوحيد»[١٢٤] . إن ما أكده مرشد الدولة الإيرانية في حكم الصابئة المندائيين هو «أن في عقائدهم جملة من العقائد التوحيدية الحقة المقبولة ، وزمرة من الأباطيل المنافية للعقيدة التوحيدية الخالصة»[١٢٥] . ويعني بالأباطيل المنافية للتوحيد الخالص هو «اعتقادهم بما يسمى منداهيي الذي يقولون عنه بأنه أول مَنْ سبح الله تعالى وحمده . وأنه أحد الملائكة المقربين ويقرنون اسمه في بعض البوثات (الآيات) باسم الربّ تعالى . ومن ذلك ما يرى التوسل

(١٢١) الخامنئي ، الصابئة حكمهم الشرعي وحقيقتهم الدينية ، ص ٤٠ .
(١٢٢) المصدر نفسه . ويعني بالجواهر موسوعة «جواهر الكلام» للنجفي .
(١٢٣) المصدر نفسه ، ص ٤١ .
(١٢٤) المصدر نفسه .
(١٢٥) المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

بالملائكة الذين يسمونهم بأسماء عندهم، ويعتبرونهم من المقربين. ويذكرون آدم ويحيى عليه السلام في عداد الملائكة. ويسلمون على الأنهار المقدسة، والأماكن المقدسة، وعلى الحياة، وسكان عالم الأنوار، وغير ذلك»(١٢٦).

كل ما قاله آية الله علي الخامنئي في أمر الصابئة كان صحيحاً، لكنه ربما لم يسمع منهم تأويلاً لعلاقتهم بالماء الحي، وتعريفهم لعالم النور، وأي دين يخلو مما لدى الصابئة من العلاقة بالماء والضياء؟ فهم إذ يجعلون للماء منزلة في طقوسهم كوسيلة للعبادة، لا يسلمون على الأنهار، وإنما يذكرون الحي القديم، وهم يغطسون في النهر. وقد لا ينفصل اهتمام آية الله خامنئي بالصابئة المندائيين عن مهامه كمرشد لدولة يقطنها المسلم، والمسيحي، واليهودي، والمندائي، والزرادشتي، والبهائي. وهو بهذا تفوق على سلفه آية الله الخميني في معاملة أهل الكتاب والأديان الأخرى. فالخميني لم يعترف بكتاب أو شبه كتاب للصابئة. يفهم ذلك من حكمه في ما يخص الجزية. قال: «تؤخذ الجزية من اليهود والنصارى من أهل الكتاب، وممَنْ له شبه كتاب، وهم المجوس»(١٢٧). ونطق بالحكم التالي، وهو ما يهدد وجود الصابئة في أي وقت من الأوقات: «فلا يقبل من غير الطوائف الثلاث إلا الإسلام أو القتل، وكذا لا تقبل ممَنْ تهود، أو تمجس بعد نسخ كتبهم بالإسلام. فمَنْ دخل في الطوائف حربي سواء كان مشركاً أو من سائر الفرق الباطلة»(١٢٨). فالزرادشتيون بإيران يظهرون في المجالس الرسمية بثيابهم البيضاء الناصعة، بينما ليس هناك حقوق مكتوبة للصابئة المندائية.

ورغم ايجابية ماذهب إليه آية الله علي خامنئي في الدين المندائي إلا أن الدستور الإيراني في ظل الجمهورية الإسلامية، تضمن حكم آية الله الخميني في أحوال الأديان الأخرى، ولم يعترف بالصابئة مثل اعترافه بالزرادشتية أو المجوس. جاء في المادة الثالثة عشرة من الدستور «الإيرانيون الزرادشت واليهود والمسيحيون هم وحدهم الأقليات الدينية المعترف بها، وتتمتع بالحرية في أداء مراسمها الدينية ضمن نطاق القانون. ولها أن تعمل وفق قواعدها في الأحوال الشخصية والتعاليم الدينية»(١٢٩).

يتبين مما تقدم أن التعامل بهذه الطريقة مع ديانة قديمة بالمنطقة تعرض أدوات الفقيه، ومستوى علمه وحرصه على الحقيقة للمسائلة. فالغالب من الفقهاء استخدم أداة التاريخ

---

(١٢٦) المصدر نفسه.

(١٢٧) الخميني، تحرير الوسيلة ٢ ص ٤٤٨.

(١٢٨) المصدر نفسه.

(١٢٩) دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية، المركز الثقافي للجمهورية، ص ٤٤.

المكتوب ورواية الحديث ، وترك الواقع المعاش . ولم ينته الأمر عند الفقهاء القدماء بل تواتر إلى المعاصرين ، رغم كثرة الدراسات وتبدل أحوال المعرفة . إلا أنهم ظلوا يجهلون أمر الصابئة . بداية من صاحب أكبر موسوعة فقهية «جواهر الكلام» النجفي ، من أعلام القرن التاسع عشر ، وانتهاء بالفقهاء المعاصرين . فماعدا فتوى الإمام الخوئي ، ورسالة لمرشد الدولة الإيرانية آية الله خامنئي لم نجد شيئاً مفيداً حول التعامل مع أهل هذا الدين . على الرغم من أن معتنقيه أكثر اختلاطاً بالمذهب الشيعي بجنوب العراق من غيرهم من أهل الأديان والمذاهب الأخرى . وكانوا سبباً في معاش المنطقة ، فهم لفترة طويلة كانوا منتجي وسائل الإنتاج ، من أدوات الصيد والزراعة والنقل .

مؤرخو الإسلام

كان الجهل والتجاهل ، القديم الحديث بأمر الصابئة ، والسكوت عما شاع حول نجاستهم بين العامة بجنوب العراق ، رغم ذكرهم في القرآن أسوة بالذين آمنوا ، وأهل الكتاب . وعلى الرغم من الصداقة الروحية ، التي كان يضرب فيها المثل ، بين جامع «نهج البلاغة» ونقيب الطالبيين وتلميذ الشيخ المفيد الشريف محمد حسين الرضي (ت ٤٠٦هـ) وبين الصابئي أبي إسحاق إبراهيم بن هلال (ت ٣٨٤هـ) ، وأخبارهما التي ملأت صفحات التاريخ والأدب ، ورسائلهما الوجدانية قد استغرقت كتاباً ، صدر بعنوان «رسائل الصابئ والشريف الرضي» . كانت أشهر قصائد الشريف الرضي في رثاء إبراهيم الصابئ ، التي استغرقت ثمانين بيتاً ، ومطلعها المشهور :

أعلمت مَنْ حملوا على الأعوادِ

أرأيت كيف خبا ضياء النادي[١٣٠]

وإذ كانت عاطفة الشريف الرضي تجاه صديقه الأثير إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصابئ ، ندية كما جسدها في قصيدته المذكورة كان أخوه الشريف المرتضى من خشونة الجانب أن رد على «أعلمت مَنْ حملوا على الأعواد» بالقول : «نعم علمنا أنهم حملوا على الأعواد كلباً كافراً صابئاً عجلَ به إلى نار جهنم»[١٣١] . وعلى هذا تُقاس الهوة الروحية بين الأخوين الشريفين . ومن أبيات الرضي ذات الوجد العميق ، التي وردت في قصيدته ، وليكن اسمها «الصابئية» :

---

(١٣٠) نجم ، رسائل الصابئ والشريف الرضي ، ص ٤٥ – ٥٥ .

(١٣١) القفطي ، أخبار العلماء بأخبار الحكاء ، ص ٥٥ .

ما مات مَنْ جعل الزمان لسانه ... يتلو مناقبَ عُوّداً وبوادي
فأذهب كما ذهب الربيع وإثره ... باقٍ بكل خمائلٍ ونجاد

وكتب الرضي معاتباً إلى بعض أصدقائه، عقب وفاة أبي إسحاق، شاكياً له ما لحقه من وجد وقلق بسبب فقده: «بلاغي بما لا أقوم له من أليم قطيعته. والأُولى صفته معي في الصديق الصادق. والحميم الموافق أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ. فإنه كما لم يغير لي ودّه في حياته رماني بالخطب الجليل من وفاته. وانتزعه من يدي على حين انضمامها على إخائه»[١٣٢]. وأبو إسحاق إبراهيم بن هلال كان كاتباً ثقة عند البويهيين الشيعة، وصنف كتاباً في تاريخهم تحت عنوان «التاجي». ولم يسلم من غضبهم، كما ستَرِد الإشارة في حينه. وتحايل البويهيون على إبراهيم بن هلال أن يعلن إسلامه ليولوه منصب الوزارة لفضله ومنزلته، لكنه امتنع[١٣٣].

ظل طيف الصداقة بين الرضي والصابئي حياً في ذاكرة الأتباع حتى عصرنا الحاضر. أخبرني السيد محمد بحر العلوم، وهو ينتسب لأسرة دينية وأدبية نجفية عريقة أن صداقة وطيدة بين والده السيد علي بحر العلوم والشيخ الصابئي أبي بشير عنيسي دامت حتى وفاتهما، يوم كانت لبحر العلوم أراضٍ وقفية بالعمارة. وعندما سأله الآخرون، بين منتقد ومستفسر، عن سر الصداقة مع شيخ صابئي أجاب مذكراً بما بين الرضي والصابئي[١٣٤]:

بيني وبين أبي بشير صداقة
تبقى مدى الأيام والأحقاب
إني لأرجو الود يبقى بيننا
كوداد سيدنا الرضي والصابي

وكتب ابن أبي أصيبعة في ترجمة صابئي آخر له منزلة كبيرة عند أهل الأمر، هو ثابت بن قرة الحراني: «هو أصل ما تجدد للصابئة من الرئاسة في مدينة السلام»[١٣٥]. وكان طبيباً من خاصة المعتضد، يمشي معه للرياضة بالفردوس، وهو بستان داخل دار الخلافة. وقال ثابت في والده شيخ أطباء بغداد: «إنه لما كان في أول يوم من المحرم، سنة ست وثلاثمائة، فتح والدي سنان بن ثابت بيمارستان السيدة (شغب أم المقتدر)، الذي اتخذه لها بسوق يحيى، وجلس فيه ورتب المتطببين، وقبل المرضى، وكان بناه على دجلة. وكانت

---

(١٣٢) نجم، رسائل الصابئ والشريف الرضي، ص ١٠٥ - ١٠٦.
(١٣٣) ترتون، أهل الذمة في الإسلام، ص ١٨٠.
(١٣٤) لقاء مع السيد محمد بحر العلوم في مؤسسة آل البيت بلندن، نوفمبر ١٩٩٩.
(١٣٥) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢ ص ١٩٩.

النفقة عليه في الشهر ستمائة دينار . قال : وفي هذه السنة أيضاً أشار والدي على المقتدر بالله بأن يتخذ بيمارستاناً ينسب إليه ، فأمره باتخاذه ، فاتخذه في باب الشام ، وسماه البيمارستان المقتدري ، وأنفق عليه من ماله في كل شهر مائتي دينار . ولما كان في سنة تسع عشرة وثلاثمائة إتصل المقتدر أن غلطاً جرى على رجل من العامة ، من بعض المتطببين ، فمات الرجل ، فأمر إبراهيم بن محمد بن بطحا بمنع سائر المتطببين من التصرف إلا مَنْ امتحنه والدي ، سنان بن ثابت . وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له من الصناعة ، فصاروا إلى والدي وامتحنهم ، وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه ، وبلغ عددهم جانبي بغداد ثمانمائة رجل ونيفاً وستين رجلاً ، سوى مَنْ استغنى عن مهنته باشتهاره بالتقدم في صناعته ، وسوى من كان في خدمة السلطان»[١٣٦] .

ولم يكن سنان بن ثابت طبيباً فقط بل كان من رجاحة العقل والرأي أن بعث له أمير واسط ، بعد وفاة الراضي بالله ، لتدبير بدنه وسلوكه . قال له : «أريد أن اعتمد عليك في تدبير بدني وتفقده ، والنظر في مصالحه . وفي أمر آخر هو أهم إليّ من أمر بدني ، وهو أمر أخلاقي ، لثقتي بعقلك وفضلك ودينك ومحبتك ، فقد غمني غلبة الغضب ، والغيظ عليّ ، وإفراطهما بيّ ، حتى أخرج إلى ما أندم عليه عند سكونهما من ضرب وقتل»[١٣٧] .

فأين عاطفة الشريف الرضي ووجدانه تجاه مَنْ ظل محتفظاً بدينه الصابئي؟ وأين ثقة الخلفاء والأمراء في أطباء صابئين من فقهاء العصر ، الذين أفتوا خارج كتب الفقه بنجاسة الصابئة المندائيين ، وهم أهل دين ، الماء عندهم بعد الله وقبل النور؟ هذا وليس لدي معطيات تسمح ببحث العلاقة بين الرجلين خارج إطارها الإنساني . يذكر أن هناك إشارات وتلميحات في شعر الرضي تفيد في وجود منحى عرفاني لديه ، والصابئة بالأساس هم عرفانيون . وبالتالي قد تكتشف صلة فكرية بين عالمين مختلفي الديانة ، لكن ذلك هم آخر لا مجال للدخول فيه .

أتى المؤرخون المسلمون المندائيين الحاليين على تفاصيل أشارت إلى كتبهم ، وطقوسهم ، ومناطق تواجدهم بجنوب العراق ، حيث وفرة الماء الحي بمساحات شاسعة . قال الطبري مفسراً معنى الصحف الأولى : «نزلت على ابن آدم هبة الله ، وإدريس عليهما السلام»[١٣٨] . يُذكّر هذا بقصة معراج دنانوخت (إدريس) ، والكتب التي نزلت عليه ، ومعراجه إلى السماء السابعة ، كما ورد في «الكنزاربا» . وحسب الطبري كان «مُلك

(١٣٦) المصدر نفسه ٢ ص ٢٠٤ .

(١٣٧) المصدر نفسه .

(١٣٨) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ١ ص ١٧١ .

بيوراسب في عهد إدريس، وقد وقع إليه كلام من كلام آدم، صلوات الله عليه، فاتخذه في ذلك الزمان سحراً. وكان بيوراسب يعمل به، وكان إذا أراد شيئاً من جميع مملكته، أو أعجبته داية أو امرأة نفخ بقبضة له من الذهب»[١٣٩]. وبيوراسب «دعا إلى ملة الصابئين... وتبعه على ذلك الذين أرسل إليهم نوح عليه السلام»[١٤٠].

ويعد صابئتنا الحاليون كتابهم كتاب آدم. كما يعدون إدريس ونوحاً من عظمائهم. ويذكر المسعودي – غير الرواية الخاصة بالمندائيين الحاليين – أن الصابئة «تزعم أخنوخ بن يرد هرمس، ومعنى هرمس عطارد، وهو الذي أخبر الله في كتابه أنه رفعه مكاناً علياً، وكانت حياته في الأرض ثلاثمائة سنة. وهو أول مَنْ درز الدروز، وخاط بالإبرة. وأُنزلت قبل ذلك على آدم إحدى وعشرون صحيفة. وأُنزلت على شيت تسع وعشرون صحيفة، فيها تهليل وتسبيح»[١٤١].

تقترب رواية المسعودي إلى حد كبير من قصة «الكنزاربا». فأخنوخ بن يرد هو دنانوخت نفسه، وهو هرمس، وهرمس هو إدريس، وهو الذي عرج إلى السماء السابعة المكان العلي، ونزلت عليه الصحف فحفظها في غرفة مغلقة. ثم نزلت عليه ثمانية كتب أخرى، لم يصح منها غير الكتاب الثامن. وورد معراج إدريس (دنانوخت) في القرآن الكريم، وقصته واحدة من المتوافقات بين الكتابين، جاء في الآية: «واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صدّيقاً نبيّا، ورفعناه مكاناً عليا»[١٤٢].

ويربط المسعودي (ت ٣٤٦هـ) بين الصابئة القدماء الحرانيين وبين المندائيين الحاليين، ثم اختصاص الأخيرين باسم الكيماريين، مشخصاً مؤسسهم الأول في الديار الهندية. قال: «رجل يقال له بوداسف أحدث مذهب الصابئة، وقال: إن معالي الشرف الكامل والصلاح الشامل ومعدن الحياة في هذا السقف المرفوع، وإن الكواكب هي المدبرات والواردات والصادرات، وهي التي برزوها من أفلاكها وقطعها مسافاتها، واتصالها بنقطة، وانفصالها عن نقطة سبب ما يكون في العالم، من آثار من امتداد الأعمار وقصرها، وتركيب البسائط، وانبساط المركبات، وتتميم الصور، وظهور المياه وفيضها، وفي النجوم السيارة، وفي أفلاكها التدبير الأعظم وغير ذلك... فاجتذب جماعة من ذوي الضعف في الآراء، فيقال إن هذا الرجل أول مَنْ أظهر مذهب الصابئة من الحرانيين، والكيماريين. وهذا النوع من الصابئة

(١٣٩) المصدر نفسه.

(١٤٠) المصدر نفسه، ص ١٧٢ – ١٧٩.

(١٤١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر ١ ص ٤٣.

(١٤٢) سورة مريم ٦٥–٧٥.

مباينون للحرانيين في نحلتهم وديارهم بين واسط والبصرة من أرض العراق نحو البطائح والآجام»[١٤٣] .

وربما قصد المسعودي بقوله : «أعلى كهنتهم يسمى رأس كمري» درجة دينية عُرف بها كهنة المندائيين . وقد تقابل اليوم رئيس أمة أو ريش أمة ، حسب اللفظ المندائي ، وهو أعلى درجة دينية بين المندائيين الحاليين . وقد وردت لفظة الكمرا في كتاب «القلستا» ، أو ترانيم الزواج عند المندائية. جاء في النص الديني : «ألكا كمرا : أنت الجوهرة الكاملة المختارة التي تخلو من العيوب»[١٤٤] . وكمر عند المندائيين كائن مقدس ، أُثري من ملائكة النور ، أو من مساعدي الملائكة ، حسب الشروحات الواردة في «الكنزاربا». والمسعودي ينفرد في تسمية الصابئة المندائيين بالكيماريين ، فلم نعثر على هذه التسمية عند الآخرين. ولربما سمعها من المندائيين أنفسهم. خلا ذلك ، فكلمة كماريم وردت في «قاموس الكتاب المقدس»[١٤٥] . وتعني «كهنة الآلهة الكاذبة» و«كهنة الأصنام» ، أو «كهنة عجول بيت أوان» . والجملة الأخيرة ، حسب «نبوءة صفينا» من العهد القديم تعني السامرة ، وهم فرقة يهودية تخالف اليهود في أمور عديدة. أما الجملتان الأخيرتان فتعني الصابئة ، لإنهم حسب العرف اليهودي عبدة أصنام .

ومن الفائدة أن نأتي على متعلقات تسمية الكيماريين الأخرى ، وأولها ما يتعلق بالختان أو الطهور . وبالتالي أتت مصحفة من كلمة كَمَرَة وتعني رأس الذكر ، و«المكمور مَنْ أصاب الخاتن كمرته»[١٤٦] . وإن صح ذلك فالتسمية واحدة من مسميات الأضداد ، مثلما يدعى القبيح بالجميل . فالمعروف عن الصابئة أنهم يحرمون الختان لأسباب تتعلق بتقديس ما خلقه الله . أو تتعلق التسمية بالستر والاخفاء ، والمندائيون لا يشهرون طقوسهم ، فهم ديانة أقرب إلى السرية . ومن معاني الكمر الغطاء والستر . أو لها صلة بالشعر والصابئة يشددون على عدم حلاقته ، ومن معانيها أيضاً منطقة من الشعر ، وهي فارسية . كل هذه الاحتمالات تحضر عند تفسير ما أتى به المسعودي من تسمية لم يألفها حتى الصابئة أنفسهم . لكن لا يستبعد أنه سمع باسم الملاك كمرا من أحد كهنتهم ، أو بما نُعت به كهنتهم من قِبل اليهود .

سمى أبو فرج النديم (ت ٤٣٨هـ)[١٤٧] المندائية بالمغتسلة ، وهو أقرب الأسماء تعبيراً

(١٤٣) المسعودي ، مروج الذهب ١ ص ٢٦٣ .

(١٤٤) كتاب القلستا ، ترانيم الزواج المندائية ، ص ١ و٢٦ .

(١٤٥) قاموس الكتاب المقدس ، ص ٧٨٧ .

(١٤٦) الفيروزأبادي ، القاموس المحيط ، ص ٤٧١ .

(١٤٧) صنف النديم «الفهرست» العام ٣٧٧هـ ، وقد أخطأتَ ، نقلاً عن آخرين ، في جعل هذا التاريخ أو بحدوده تاريخاً لوفاته ، كما حصل في كتبي السابقة : «مذهب المعتزلة من الكلام إلى الفلسفة» ،

عن طريقة طقوسهم. قال: «هؤلاء القوم كثيرون بنواحي البطائح (الأهوار) وهم صابئة البطائح. يقولون بالاغتسال، ويغسلون جميع ما يأكلونه»[١٤٨]. وقال في عقائدهم: إنهم «على مذاهب النبط القديم، يعظمون النجوم، ولهم أمثلة وأصنام، وهم عامة الصابة (هكذا وردت) المعروفين بالحرانيين. وقيل إنهم غيرهم جملة وتفصيلاً»[١٤٩]. وفي العبارة الأخيرة تراجع النديم عن الخلط بين الحرانيين والصابئة المندائيين رغم أنه نقل قصة عن أبي يوسف أيشع القطيعي النصراني أشارت إلى حادثة غريبة تؤرخ إلى سبب اتخاذ الحرانيين اسم الصابئة، بعد أن خيرهم الخليفة عبد الله المأمون بين الإسلام أو الالتحاق بدين من الأديان الكتابية، واختاروا الدين الصابئي لذكره في القرآن بناءً على نصحية أحد العارفين[١٥٠].

أشار النديم إلى المندائيين، لا عن قصد، بالكشطيين، ومعروف أن كلمة كشطا كلمة مندائية تعني العهد أو الحق، تتكرر كثيراً في كتاب «الكنزاربا»، وتأتي مركبة: مشوني كشطه. «أي الحق المتسامي، وهو عالم مثالي وموطن الآدميين السماويين، وفيه أشباه المخلوقات والأدوات الأرضية، ويكون موقعه في الشمال من الكون، حيث يقع عالم النور»[١٥١]. جاء في مقالة الكشطيين: «إنه قبل كل شيء الحي العظيم، فخلق من نفسه ابناً وسماه نجم الضياء، ويسمونه الحي الثاني (لعله منداهي)، ويقولون بالقربان والهدايا والأشياء الحسنة»[١٥٢]، ومفردة الحي العظيم مفردة مندائية أيضاً.

ويستبعد أن قصد النديم في تسمية ملة من الملل بـ«الرشيين» الملة المندائية، مع كل اهتمامها بالماء الحي والظلام، وتعلق التسمية برش الماء يوهم بهوية مندائية. قال الرشيون: «لم يكن غير الظلمة فقط. وكان في جوفها الماء، الريح، وفي الريح الرحم، وفي الرحم المشيمة، وفي المشيمة البيضة، وفي البيضة الماء الحي، وفي الماء الحي ابن الأحياء العظيم. وارتفع إلى العلو، فخلق البريات والأشياء والسموات والآلهة»[١٥٣]، و معلوم أن مفردة الماء الحي مفردة مندائية خالصة. انفرد النديم في ذكر المندائيين بالتسميات الدالة عليهم، مثل الرشيين والكشطيين، مع الاختلاف في المقالات والعقائد. ومن الغرابة بمكان أن يتجاهل المؤرخون المسلمون تسمية المندائية، على الرغم من أنهم ترجموا لحياة أكثر من شيخ مندائي

= «معتزلة البصرة وبغداد» و«جدل التنزيل».

(١٤٨) المصدر نفسه، ص ٤٠٣.

(١٤٩) المصدر نفسه، ص ٤٠٤.

(١٥٠) المصدر نفسه، ص ٣٨٩.

(١٥١) نعيم بدوي، الصابئة فلسفة وتاريخاً، محاضرة ألقيت على طلبة قسم الدين في كلية الآداب - جامعة بغداد ٢٩ نيسان (أبريل) ١٩٧٥.

(١٥٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٠٣.

(١٥٣) المصدر نفسه، ص ٤٠٣.

تحول إلى الإسلام ليكون شيخاً في علومه ، وظل يعرف بالمندائي أو ابن منده . منهم : المعروف بطواف الدنيا ، لكثرة تجواله بين البلدان ، أبو عبد الله محمد بن إسحاق ابن منده (ت ٣٩٥هـ) . والطبيب أبو علي أحمد بن عبد الرحمن ابن مندويه (ت ٤٤٠هـ) صاحب «المختصر في علم الطب – الأبانة عن السبب الذي يولد في الأذن القرقرة» . وأبو القاسم عبد الرحمن بن محمد ، ومنده لقب جده الأعلى (ت ٤٧٥هـ) . والشيخ أبو الفتح محمد بن أحمد بن بختيار المندائي (ت ٦٠٥هـ) ، ويعرف بمسند العراق وكان والده قاضياً(١٥٤) . والمندائية هي الاسم الصحيح لهذه الجماعة ، وتتصل باسم الملاك منداهيي ، وهو الأُثري العارف الأول بالحي الأزلي . وتتصل بالمانا وتعني العقل . وتُعرف معابدهم بالمنديات ، أو بيوت المندي . وبالتالي تعني مفردة المندائي : الموحد أو العارف بالله(١٥٥) عن طريق آثاره ، وهذا هو معنى العرفاني أو الغنوصي (راجع باب العرفان في الفروق لأبي هلال العسكري) .

ويذكر ابن النديم علاقة المندائية بالمانوية . وهي ديانة وفلسفة في آن واحد ، ظهرت بالعراق في القرن الثالث الميلادي ، إلا أنها ليست فارسية بحال من الأحوال . فمن أهدافها إقامة كنيسة بابل ، وأن الوحي والاجتماع المانوي الرسمي لا يتم إلا ببابل ، وأن مؤسسها ولد بالقرب من كُوثى البابلية(١٥٦) ، المكان الذي أنتسب له علي بن أبي طالب . وتؤكد هذه العلاقة قدم المندائية بجنوب العراق حيث جداول المياه العذبة في الأهوار ، وكان ماني قد قتل بالمدائن بعد محاكمة في حضرة بهرام الأول ، بتحريض من فقهاء المجوس السنة (٢٧٦ميلادية) .

بدأت المانوية بصوت سمعه والد ماني ، ناداه من الهيكل قائلاً : «لا تأكل لحماً . ولا تشرب خمراً . ولا تنكح بشراً . تكرر ذلك عليه دفعات في ثلاثة أيام . فلما رأى فاتق ذلك لحق بقوم كانوا بنواحي دست ميسان (العمارة حالياً) معروفون بالمغتسلة ، وبتيك النواحي والبطائح بقاياهم إلى وقتنا هذا (القرن الرابع الهجري) . وكانوا على المذهب الذي أمر فاتق الدخول فيه . وكانت امرأته حاملاً بماني ، فلما ولدته زعموا : كانت ترى له المنامات الحسنة ، وكانت ترى في اليقظة كأن أحداً يأخذه ، فيصعد به إلى الجو ثم يرده»(١٥٧) . وأخيراً ، لا ندري إن كان اسم ماني مشتقاً من المانا المندائية ، التي تفيد عدة معان ، كل واحدة منها مناسبة لصفات الأنبياء ، وهي : العقل ، الوعاء ، النفس ، وقد تأتي بمعنًى ملاك ذي مرتبة سامية(١٥٨) .

---

(١٥٤) راجع ابن عماد ، شذرات الذهب في أخبار منّ ذهب ،وإسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين .

(١٥٥)مصطلحات كنزاربا ، اليمين .

(١٥٦) البيروني ،الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ص ٢٠٨ .

(١٥٧) النديم ، الفهرست ، ص ٣٩٢ .

(١٥٨) مصطلحات كنزاربا اليمين .

روى أبو الريحان البيروني (ت٤٤٠هـ) عن آخر: «إن هؤلاء الحرانية ليسوا الصابئة بالحقيقة، بل هم المسمون في الكتب بالحنفاء والوثنية. فإن الصابئة هم الذين تخلفوا ببابل من جملة الأسباط الناهضة في أيام كورش، وأيام أرطحشست إلى بيت المقدس، ومالوا إلى شرائع المجوس، فصبوا إلى دين بختنصر، فذهبوا مذهباً ممتزجاً من المجوسية واليهودية كالسامرة بالشام. وقد يوجد أكثرهم بواسط وسواد العراق بناحية جعفر والجامدة ونهري الصلة، منتمين إلى أنوش بن شيت، ومخالفين للحرانية عائبين مذاهبهم لا يوافقونهم إلا في أشياء قليلة، حتى أنهم يتوجهون في الصلاة إلى جهة القطب الشمالي والحرانية إلى الجنوبية»(١٥٩).

ولرواية البيروني صلة بمندائيي اليوم، فقد ورد في كتاب «كنزاربا» فصل تحت عنوان «تساؤلات آنوش»، جاء فيه: «باسم الحي العظيم.. جالس في بلد الضياء، متطلع إلى الأرض والسماء، أنا أنوش الأمين بن شتيل (شيت) الأمين بن آدم الأمين ابن الملائكة ذوي الوقار، ابن بلد المعرفة والتسبيح والأنوار»(١٦٠). غير أن البيروني، الذي نقل هذه المعلومة المهمة، كان قد اعتذر في كتاب آخر عن ذكر المندائيين. قال: «الصابئون في كتاب الله تعالى مقترنون بالذكر بالطوائف الذين قدمنا ذكرهم. فأما الكائنون بسواد العراق، حوالي قرى واسط، فما حصلت من أسبابها على شيء البتة»(١٦١).

ومن غير المؤرخين، كتب ابن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) تحت عنوان «خصاء الصابئة»: «وأما الصابئون، فإن العابد منهم ربما خصى نفسه، فهم في هذا الموضع قد تقدم الرومي فيما اضطر من حسن النية، وانتحل من الديانة والعبادة بخصاء الولد التام، وبإدخاله النقص على النسل، كما فعل ذلك أبو المبارك الصابي، وما زال خلفاؤنا وملوكنا يبعثون إليه ويسمعون منه، ويسمر عندهم ... وقد خصى نفسه من الصابئين رجال، قد عرفناهم بأسمائهم وأنسابهم وصفاتهم وأحاديثهم»(١٦٢).

وإذا كانت معلومة الجاحظ تتعلق بالصابئة المندائيين فإنه أخطأ في نقله، أو تصوره عنهم. والصحيح أن عقيدتهم حرمت الجنة على مَنْ يعزف عن الزواج. ولا يولون عاقراً منصباً دينياً. فكيف يمارسون الخصاء؟ والبوثة (الآية) التالية من كتابهم المقدس تُغني عن الرد: «أيها العزاب أيتها العذارى، أيها الرجال العازفون عن النساء، أيتها النساء العازفات عن

---

(١٥٩) البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص٢٠٦.

(١٦٠) الكنزاربا اليمين، الكتاب الرابع عشر، التسبيح الأول، ص٢٢٦.

(١٦١) البيروني، القانون المسعودي ١ ص ٢٦٧.

(١٦٢) الجاحظ، كتاب الحيوان ١ ص ٢٥.

الرجال : هل وقفتم على ساحل البحر يوماً؟ هل نظرتم إلى السمك كيف يسبح أزواجاً؟ هل صعدتم إلى ضفة الفرات العظيم ، هل تأملتم الأشجار واقفة تشرب الماء على ضفافه وتثمر؟ فما بالكم لا تثمرون؟ وجاء في البوثة : «الرجال الزاهدون في النساء ، والنساء الزاهدات في الرجال كذلك يموتون ، ومصيرهم الظلام حين من أجسادهم يخرجون» . والبوثة : «أثمروا إن أردتم أن تصعدوا حيث النور»[١٦٣] .

فهل تكفي رد قول الجاحظ في خصاء الصابئة بوثات(آيات) «الكنزاربا» الكثيرة في تقديس الصابئة للخصب؟ والجاحظ الذي انحدر من بيئة الصابئة المندائيين ، البصرة ، يروي أن غلاماً صابئياً سأل غلام شيخه إبراهيم بن سيار النظام عن علة تحريم الإسلام للخمر ، فأجاب لأنها تزيل العقل . قال الصابئي : ينبغي تحريم النوم فإنه يزيل العقل . قال الغلام المسلم : إنه قوت البدن . قال الصابئي : ليحرم ما فضل عن القوت[١٦٤] . يذكر هذا الحوار بانفتاح فكري عاشه الجاحظ وعاشه المندائيون ، يقطع فيه الصابئي المسلم وبمسألة دينية ، الجدل فيها محظوراً .

أثرت مقالة الصابئة المندائيين بالمحيط ، فحرم بعض رؤساء الفرق السرية الإسلامية الختان للسبب نفسه ، وهو عدم إنقاص ما خلق الله في الجسد . فقد شاع عن عبد الله بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب أنه شرع لأصحابه ، وهم جماعة من الشيعة ، «تحريم الختان ، وقال (ما قالته الصابئة) : إن المختتن راغب عن خلق الله ، ولولا الشعر والظفر ميتان ، وعلى الحي مفارقة الميت ما قلمنا ظفراً ، ولا أخففنا شعراً»[١٦٥] . أحسب صاحب هذه الفرقة ، إن صحت الرواية ، قد سمعها عن المندائيين ، فاتخذها للتفرد بمقالة مثيرة .

وكم كانت قصة صراع وانتصار هيبل زيوا المندائي على ملكة الظلام الروهة متجسدة في مقالة إحدى فرق الشيعة «أصحاب بن حرب» في محمد بن الحنفية ، يوم يخرج من البلد الأمين ، ويقضي على الجبابرة بسيف من شق صاعقة ، يكور به الشمس . «ثم يعود في عمق الأرض حتى إذا بلغ الماء الأسود والجو الأزرق ، صاح به صائح يسمع الثقلين (الجن والأنس) : قد شفيت قد شفيت ، فيمسك عند ذلك ويعود إلى البلد الأمين»[١٦٦] . ومعلوم ، أن الماء الأسود عند المندائيين هو مكان كائن الظلام الروهة في أسفل السافلين من طبقات الأرض ، والجو الأزرق هو لون ثيابها ، لذا يكره الدين المندائي ارتداء الثياب الزرقاء ، مثلهم مثل الأيزيدية .

---

(١٦٣) الكنزاربا اليمين ، الكتاب الثاني ، ص ٣٨ - ٣٩ .
(١٦٤) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، ص ٢٧٢ .
(١٦٥)الأشعري ، المقالات والفرق ، ص ٤١ .
(١٦٦) الأشعري ، المقالات والفرق ، ص ٣١ .

عدد نفوسهم

أشارت الإحصاءات بداية من جهود الرحالة البرتغاليين في القرن السابع عشر الميلادي وحتى العام ٢٠٠٠ ، إلى تذبذب كبير في عدد المندائيين ، ويعود ذلك إلى التقديرات غير الدقيقة من جهة ، ومن جهة أخرى إلى الاضطهادات والأوبئة التي أثرت في عددهم تأثيراً خطيراً . فعدوا العام ١٦٥٢ بـ (١٢٥٠٠٠) نسمة نقصوا العام ١٨٧٧ إلى أربعة آلاف نسمة . بينما ورد عددهم في النشرة الرسمية العثمانية لعام (١٨٩٨ - ١٨٩٩) بالبصرة والعمارة والناصرية فقط (٣٠٠٠) نسمة[١٦٧]. وعددهم بالعراق العام ١٩٢٧ (١٠٠٠٠) نسمة . وذكرهم الدليل العراقي الرسمي العام ١٩٣٦ بحوالي أربعين ألف نسمة . بينما ذكرهم عبد الرزاق الحسني في «العراق قديماً وحديثاً» اعتماداً على إحصاء ١٩٤٧ بحوالي (٦٣٦٨) نسمة . وبلغوا العام ١٩٥٧ ، حسب الإحصاء الرسمي ، (١١٨٢٥) نسمة . وبلغوا العام ١٩٦٥ ، حسب الإحصاء الرسمي أيضاً ، (١٤٥٧٢) نسمة[١٦٨] . وعدَّ نعيم بدوي الناشيء قومه بحوالي (١٥٠٠٠) نسمة[١٦٩] . وعدتهم ناجية مراني في «مفاهيم صابئية مندائية» بـ (١٨٠٠٠) نسمة . وفي مجلة «المجلة» (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦) ورد عددهم بعشرين ألف نسمة . وقيل إن عددهم حالياً بلغ مئة ألف نسمة : خمسون ألفاً منهم داخل العراق ، والخمسون الأخرون بإيران وبقية دول العالم[١٧٠] . وورد عددهم في تقرير مديرية الأمن العامة(داخل العراق فقط) في إحصاءات : (١٩٤٧ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٧) على التوالي : (٦٥٩٧) ، (١١٤٢٥) ، (١٤,٢٦٢) ، (١٥٩٣٧) . وأكثر نسبة لهم ببغداد ثم البصرة ثم العمارة ثم الناصرية[١٧١] . ولا ندري من أين أتى سعد الدين إبراهيم بالرقم (١٥٠ ألف)[١٧٢] ، وهو يتحدث عن صابئة العراق فقط؟ وحتى لو جمع بهم صابئة الأهواز ما بلغوا هذا العدد .

وعلى رغم من وجود هذا العدد ، الكبير نسبياً ، والتاريخ الضارب في القدم إلا أن الدولة العثمانية «لم تعترف بهم كطائفة ، ولهذا فأنها قبلت من أفرادها البدل العسكري ، أسوة بالعثمانيين غير المسلمين»[١٧٣] . أما في ظل حكمي الاحتلال البريطاني والعهد الملكي

(١٦٧) أداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص ١٣٠ .

(١٦٨) صالح فليح حسن ، الصابئة دراسة جغرافية ، مجلة كلية الأداب - جامعة بغداد ، ٢٥/١٩٧٥ .

(١٦٩) مجلة «آفاق عربية» ٤/١٩٧٥ .

(١٧٠) نزار ياسر صكر حيدر (رئيس مركز البحوث والدراسات المندائية ببغداد) العام ٢٠٠٠ ، مقابلة مع جريدة القدس ، أجراها شاكر نوري .

(١٧١) التوزيع الديني للسكان العراقيين ، مديرية الأمن العامة ، ص ٢٦ ، جدول رقم (٧) .

(١٧٢) إبراهيم ، الملل والنحل والأعراق ، ص ٨١ ، ٨٣ .

(١٧٣) حارث يوسف غنيمة ، الطوائف الدينية في القوانين العراقية ، مجلة بين النهرين ، ٦٨/١٩٨٩ .

فكانت أجهزة الدولة كناظر العدلية ووزارة العدلية ومتصرفية لواء العمارة تعطيهم صفة الطائفة في التعامل الرسمي كالأيزيديين . واعتبرت أيام أعيادهم حسب القانون عطلة رسمية خاصة لهم ، وذلك بالقانون رقم ٢٩ لسنة ١٩٣٩ [١٧٤] .

وقيل إن هذا القانون ، الذي أصدرته وزارة حكمت سليمان العام ١٩٣٦ ، في ظل انقلاب بكر صدقي ، قد ألغته الحكومة اللاحقة . وظل معطلاً حتى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ [١٧٥] . وظهرت بصفة الطائفة في التعامل الرسمي منذ ١٩٢٠ في كتاب ناظر العدلية البريطاني ، وكتاب وزارة العدلية العام ١٩٢٧ إلى محكمة سوق الشيوخ بالناصرية ، وكتاب متصرفية العمارة ١٩٣٠ [١٧٦] . وحسب المرسوم الجمهوري رقم ١٠ العام ١٩٧٢ تمتع الصابئة بأربع عطل رسمية : يومان للعيد الكبير ، يصادف (٢٧ و٢٨) من شهر تموز (يوليو) . ويوم واحد للعيد الصغير يصادف ١١ تشرين الأول (أكتوبر) . ويومان لعيد الخليقة (البنجة) يوم ٢٤ آذار (مارس) . ويوم واحد لعيد يحيى المعمدان يصادف ٢٨ أيار (مايو)[١٧٧] .

كان المندائيون وما زالوا مثالاً للوداعة والسلام ، ينبذ دينهم الحرب حتى إذا كانت دفاعاً عن النفس . تمرسوا على الصبر المرير ليقاوموا به استفزازات المحيطين ، وتطاولهم ، وهذه وسيلة ناجعة مكنتهم من الاحتفاظ بكيانهم عشرات القرون . وهم حسب رجل دين مسيحي وصفهم بالمبتدعين والضالين «يمتازون بعدة فضائل ، منها العفة ، ولذا تراهم يفرقون عن غيرهم من سيمائهم ، فإن ملامح وجوههم تنطق بحسن آدابهم ، وبشاشتهم تُترجم عن نقاء سرائرهم ، ولسانهم يفصح عما في ضمائرهم ، ومن فضائلهم أيضاً محبة بعض لبعض ، وهي فيهم على نوع لا يشاهد إلا في الرهبان»[١٧٨] .

وشاهد صبرهم على الاضطهاد ما أوصاهم به «الكنزاربا» : «إذا اضطهدتم فقولوا : نحن منكم ، ولكن لا يكون ذلك قلبياً ، ولا تنكروا صوت سيدكم ملك النور الأعلى ، فالسر لا يمكن أن يعيش إلى ظهور المسيح الدجال»[١٧٩] . وكم تُذكر كلمات« الكنزاربا» بخطبة لعلي بن أبي طالب ، وهو يوصي أتباعه لما سيحدث بعده : «أما وإنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحبُ البلعوم ، مندحق البطن ، يأكل ما يجد ، ويطلب ما لا يجد ، فأقتلوه ولن تقتلوه . ألا

---

(١٧٤) المصدر نفسه .
(١٧٥)دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ١٠٧ الهامش .
(١٧٦) رومي ، الصابئة ، ص ١٩٤ .
(١٧٧) المصدر نفسه ، ١٩١ - ١٩٢ .
(١٧٨) الأب انستاس الكرملي ، اليزيدية ، المشرق ، كانون الثاني ١٩٠٢ .
(١٧٩) دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ٥٧ .

وإنه سيأمركم بسبي والبراءة مني ، فأما السب فسبوني ، فإنه لي زكاة ، ولكم نجاة ، وأما البراءة فلا تتبرأوا مني ، فإني ولدت على الفطرة ، وسبقت إلى الإيمان والهجرة»[١٨٠] .

وهذا ما مارسه الصابئي المندائي خلال السيطرة البريطانية على العراق ، فأخذ الصاغة يكتبون على حوانيتهم عبارة : «مسيحي من أتباع يوحنا المعمدان»[١٨١] . ربما ورد ذلك إثر ما نقلته الأجيال من اضطهاد البرتغاليين لهم في القرن السابع عشر الميلادي ، يوم «اتخذت الوسائل لتحويلهم إلى المسيحية بالقوة»[١٨٢] ، ويُذكر أن البرتغاليين الذين وصلوا سواحل البصرة كانوا «أول مَنْ دعا الصابئة بمسيحيي يوحنا المعمدان»[١٨٣] . وحسب آداموف ، هم أول مَنْ أخبروا أوروبا الغربية بوجود هذه الطائفة .

وقبل ذلك تعرض الصابئة إلى مذابح سجلوها في طلاسم ، وكأنها مناشير سرية ، حتى لا يظهر صوت احتجاج لهم . اطلعت الليدي دراوور على ما جاء في طلسم يخبر عن مذبحة رهيبة طالت كهنتهم وشيوخهم ، حدثت في زمن حاكم العمارة محسن بن مهدي . «كان السبب امرأة صابئية خرجت من دارها إلى النهر ، في اليوم الأول من السنة الجديدة ، في الوقت الذي ينبغي أن يكون فيه جميع أفراد الصابئة داخل بيوتهم ، فتعرض لها أعراب كانوا في أسطول من الزوارق راسٍ هناك . ونشب قتال . وأعلنت الحرب على الصابئيين ، فذبح الكهان والرجال والنساء والأطفال . وبقيت الطائفة مهيضة وبلا كهان لعدة سنين»[١٨٤] .

وربما كان الصابئة المندائيون من بين الأديان الحية بالعراق يشكون باستمرار من نقص في رجال دينهم . ويبدو أن المذابح والاضطهادات كانت تستهدف كهنة الطائفة . وهناك سبب آخر لقلة رجال الدين هو صعوبة الوصول إلى الكهانة حسب العرف الديني ، فدرجة من الدرجات الدينية تفرض على المتقدم إليها أن يسهر ستة أيام متواصلة! فبعد تفادي شحة الكهنة أثناء حوادث عديدة ذهب الطاعون الكبير السنة (١٨٣١) بشيوخ الطائفة بسوق الشيوخ (من توابع الناصرية بجنوب العراق) . وقد عالجوا الأمر باستدعاء كهنة من مناطق أخرى ليشرفوا على طقوس تنصيب كهنة جدد[١٨٥] . كل هذا جعل الصابئي لا يعتقد بالطلاسم والتعاويذ حسب بل أخذ يعيش حياته مثل طلسم ، يُفرج عن غيظه بسرية تامة .

---

(١٨٠) نهج البلاغة ، شرح محمد عبده ، خطبة ٥٧ ص ١٣٠ .
(١٨١) دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ٥٧ .
(١٨٢) المصدر نفسه .
(١٨٣)آداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص ٢٤٠ .
(١٨٤) دراوور ، الصابئة المندائيون ، ص ٥٧ .
(١٨٥)آداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ص ٢٤٦ .

الدين لا السياسة

لم يحصل أن تبنى المندائيون كطائفة أو جماعة، تحت تسمية المندائيين، حزباً أو عملاً سياسياً ما إلا بعد سقوط نظام البعث في ٩ أبريل ٢٠٠٣، حيث تأسس «التجمع الديمقراطي المندائي» كحزب خاص ومغلق للصابئة المندائيين في أغسطس «آب» ٢٠٠٣. وقبلها كانوا مضطرين إلى إصدار بيانات باسم رئاسة الطائفة ومجلسها الروحاني لتأييد النظام السابق. لكنها لاتعني شيئاً. حالهم في ذلك حال الطوائف الأخرى التي تخشى من صولة السلطة عليها، وهذا ما فعله رجال دين مسلمين، سنّة وشيعة، عندما أعلنوا تأيدهم الكامل لما سمي بالحملة الإيمانية. فالشيخ جلال الحنفي كتب هادياً كتابه «شخصية الرسول الأعظم قرآنياً» إلى صدام حسين بالعبارة: «إلى راعي الحملة الإيمانية الرائدة في العراق»[١٨٦]. وكذلك أيد رجال دين شيعة تلك الحملة بنداءات وتصريحات من على شاشات التلفزيون، مثلما فعل بعض آل الصدر بالكاظمية، ورجال دين نجفيون.

لكن لم يمنع عزوف المندائيين الكلي عن السياسة والعمل الحزبي نشاط الكثير من أبنائهم في الأحزاب الأخرى، وعلى وجه الخصوص الحزب الشيوعي العراقي، فكان من أوائل قادة الشيوعيين بالعراق المندائي مالك سيف. ومن المقتولين صبراً في الثامن من شباط ١٩٦٣ عضو اللجنة المركزية صبيح سباهي. واغتيل بعده في أوائل السبعينيات عضو اللجنة المركزية ستار خضير من عائلة آل الصكَر، وغيرهم الكثير.

يفهم من بيان الحزب، أو التجمع، مدى معارضة المرجعية الدينية المندائية ومجلسها الروحاني لأي عمل حزبي وسياسي مباشر بالعراق. جاء في بيان الحزب الصادر في بغداد ٢٥ يوليو «تموز» ٢٠٠٤: «أننا رافد من روافد الطائفة، ولا يتعارض تجمعنا مع رئاسة الطائفة، ولا مؤسساتها، وهذا نابع من رؤيتنا القائمة على الديمقراطية وإحترام الآخر. ولكن مما يؤسف له أن الأخوة القائمين على مجالس الطائفة استخدموا كل أساليب التشويه والتضليل والممارسة في الداخل والخارج ضد التجمع الديمقراطي المندائي تحت ذرائع عفا عنها الزمن، لا تنسجم مع روح العصر، ومتطلباته. وقد رفضوا في الآونة الأخيرة مبادرة تبنتها قيادة التجمع من أجل إيجاد لجنة تنسيق مشتركة تقوم بنشاطات وفعاليات آنية. ومنها عقد مؤتمر مندائي يدعو إلى تثبيت حقوق الطائفة في الدستور الدائم وإشراك ممثلين لهم في مؤسسات الدولة». وحمايتهم من الاضطهاد الذي حاولت فرضه عليهم الجماعات الدينية، وما تعرض له شبابهم من قتل متعمد وملاحقة.

معلوم أن وصايا الدين المندائي لا تقر الولوج في العمل السياسي. أولاً أنه لا يعنى

(١٨٦) الحنفي، شخصية الرسول الأعظم قرآنياً، المقدمة.

بالسلطة والدولة عموماً ، فهو إن رجعنا إلى الأصول ، وجدناه لا يعترف بالميراث ولا بالنقود إنه دين زهد وتصوف . وثانياً خشية من تقلبات السياسة الحادة بالعراق . لذا يرى شيوخ هذ الدين إنه من الأسلم الابتعاد عن المواجهات التي يقتضيها العمل الحزبي . ولا ندري ه يُكتب لهذا التجمع أو الحزب النجاح وقد بادر رجال الدين إلى معارضته؟ وهل يُعترف به من قبل الآخرين ، وهو يعمل بالضد من رغبة رئاسة الطائفة الدينية ومرجعيتها؟ ما أراه أن من أولويات أي تجمع اجتماعي أوسياسي مندائي هو الحؤول دون تصاعد هجرة المندائيين إلى الخارج ، بحثاً عن حياة أفضل وحرية دينية . فكما هو معلوم أن هجرة المندائيين وإفراغ العراق منهم يشكل ضرراً على الدين المندائي والعراق على السواء . ذلك أن الطقس المندائي والتقاليد المندائية سوف تضمحل في بلدان المهجر . وسيفقد العراق طيفاً حيوياً من أطيافه الاجتماعية والدينية ، له باعه في حرفة تاريخية ، وتخصصات أبنائه الحيوية ، ولا يعني إفراغ العراق من المندائيين والمسيحيين وأطيافه الأخرى إلا التصحر المتعمد .

فمن دون التدخل في السياسة والعمل الحزبي حدث أن صدرت فتوى ، بعد التاسع من أبريل (نيسان) ٢٠٠٣ ، عن مؤسسة مكتب الصدر بالبصرة بإمضاء الشيخ ميثم العقيلي . ومستهلة بالآية : «وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابلْ هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به المرء وزوجه»[١٨٧] . ويفهم من هذا الاستهلال التكفير الصريح وإن بقية من بابل مازالت تفعل ما فعله هاروت وماروت . جاء في الفتوى : «اعتادت طائفة من مجتمعنا عموماً وخصوصاً الصابئة منهم ، في مناطق متعددة أشهرها شارع الصياغ بممارسة أعمال الدجل ، والشعوذة ، والزنا ، والتفريق بين المرء وأهله ، وغيرها كثير . فنرجو منهم العودة إلى طاعة الله ورضوانه والتمسك بالعروة الوثقى وترك الشيطان وأعوانه والنفس الأمارة بالسوء وخاصة وهم بجوارنا نحن المسلمين . فعليهم احترام مناسك ديننا وألا يتجاهروا بالفسق ونحن مستعدون للتحاور معهم من أجل الصالح العام . وفقكم الله للعلم والعمل للصالحين»[١٨٨] . وخلاف ما ورد من إتهام لهذه الطائفة نأتي ببعض نصوص كتابها المقدس «الكنزاربا» الناهية عن الزنا والسحر ، وكل ماورد في فتوى مكتب الصدر . «لا تعشقوا نساء الآخرين ، ولا تقربوا الزنا . ولا تغنوا غناء السكير . ولا ترقصوا رقص الغجر أحذروا أن يستحوذ على قلوبكم الشيطان المملوء بأحابيل السحر والخداع والغواية»[١٨٩] . و «لا

---

(١٨٧) سورة البقرة ١٠٢ .

(١٨٨) رسالة موقعة من قِبل الشيخ ميثم العقيلي ، المؤسسة الإعلامية لمكتب السيد الشهيد الصدر بالبصرة .

(١٨٩) الكنزا ربا ، القسم اليمين ، الكتاب الأول ، ص ٢٣ ، نسخة استراليا .

تستشيروا العرافين والمنجمين والساحرين والكافرين في أموركم مخافة أن يرمى بكم أسوة بهؤلاء إلى الظلمات»[١٩٠] .

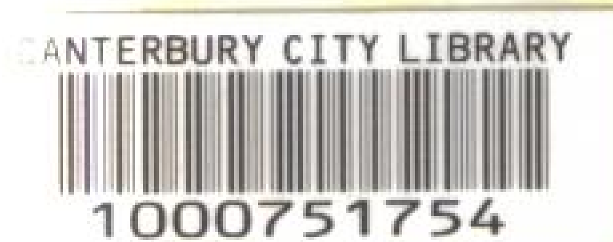
أشار شيخ الطائفة المندائية الكنزبرا ستار جبار حلو إلى مثل هذه التجاوزات في نداء وجهه إلى المجتمع العراقي والدولي . جاء فيه : «يتعرض أبناء طائفة الصابئة المندائيين إلى اعتداءات وانتهاكات بشعة مبرمجة من قتل وسلب واختطاف وهتك أعراض ، وتوزيع منشورات . لقد زاد هذا الأمر من مخاوف ابنائنا وشعورهم بخطر قادم . لذا فإننا نهيب بالسادة الأعلام رؤساء المرجعيات الدينية المحترمة كافة ، والسادة مسؤولي الدولة والأحزاب السياسية والمنظمات الدولية ، وكل من موقعه إلى بذل أقصى الجهود لنزع فتيل التفرقة بشكل جذري ، وزرع بذور المحبة والأخاء بين الأديان . ليتعزز الأمن والاستقرار ، وليشعر المواطنون جميعاً بالأمان والإطمئنان في وطننا العزيز دون تمييز عنصري وقومي وطائفي . ووزع بيان على محلات الصاغة الصابئة فقط في منطقة أبو غريب ، والتي يدعون فيها قول : لا إله إلا الله ، على اعتبار ، وحسب ظنهم ، بأننا لسنا أصحاب كتاب ، ولا نعترف بالله» (بغداد مايو «أيار» ٢٠٠٤) . ولم يمارس التعسف ضد الصابئة من قِبل جماعات شيعية متشددة فقط بل مارسته جهات سلفية سنّة أغلبها قادم من خارج الحدود . وهذا ما حدا بشيوخ الطائفة إلى اللقاء بهيئة علماء المسلمين برئاسة الشيخ حارث الضاري . ذلك لتأثيرها على الجماعات السلفية .

تم اللقاء في ديسمبر ٢٠٠٤ ، ونشرت الصحف خبراً عن اللقاء المشترك ، مع صورة تجمع بين رئيس وأعضاء الهيئة وبين رئيس الطائفة المندائية وشيوخها بثيابهم الدينية . كذلك تزايدت اللقاءات بين شيوخ الصابئة المندائية وعلماء المسلمين الشيعة . فكان اللقاء بين الشيخ الكنزبرا ستار جبار الحلو والسيد عبد العزيز الحكيم . ثم زيارة ولده عمار الحكيم إلى المندي العام ببغداد . وزيارة الكنزبرا إلى النجف واللقاء مع آية الله علي السيستاني .

يمثل الصابئة المندائيون اليوم طيفاً جميلاً من أطياف الماضي السحيق . ألسنة ما زالت تنطق بالآرامية : لغة إبراهيم الخليل ، وثياب كان يلبسها نوح ويحيى المعمدان ، وأخلاق لم يحسنها غير معروف الكرخي ، إلى صناعة الحبر التي تذكر بالوزير والكاتب ابن مُقلة (ت ٣٢٨هـ) . وهم أهل دين سماوي توجهوا إلى غاية السموات بعقولهم وأفئدتهم . ابتكروا فكرة السفن الكونية وبحارتها الكائنات النورية . ولم يجعلوا الكواكب آلهة بل أمكنة لكائنات النور والظلام . والله لديهم متعال ، عرشه يطوف فوق بحار النور النقية . ومثلما للأديان الأخرى معاريجها لهم معراجهم ، وجنّتهم ونارهم . كل هذا كان مخفياً عن المحيطين ، لم يعرفوا منهم

(١٩٠) المصدر نفسه .

غير أنهم يعبدون الكواكب كامتداد لصابئة حران ، أو يسجدون إلى كائن نحت اسمه الآخرون ، عن جهل ، من العبارة المندائية المقدسة «بشميهون اد هي ربي» ، وتعني باسم الحي ربي ، مثلها مثل عبارة المسلمين «بسم الله الرحمن الرحيم» . وإذ جعل المسلمون الرحمة صفة الله الأولى ، يطلبونها منه في مستهل كل عمل ، جعل المندائيون الحياة صفة دائمة يذكرونها في مستهل كل عمل وحركة ، فالحياة الأزلية ، حسب كتابهم ، هي الفارق الأكبر بين الله والبشر .



هذا الكتاب

لا زالت خارطة العراق الدينية والمذهبية غنية بالتنوع، وهذا الكتاب يعني بالأديان الحيّة فقط، ولم يأخذ العدد بنظر الاعتبار، فلم يتعامل بمصطلح الأقلية والأكثرية، ذلك لما في مصطلح الأقلية من حرمان وإلغاء للحقوق التاريخية والشراكة المتوازنة في الوطن الواحد، إضافة إلى ما يولده هذا المصطلح من شعور بالضعف والاغتراب، وبالتالي يصبح الوطن وطن الأكثرية فقط، والمواطنة حقوق لا تخضع لحكم الأقلية والأكثرية.

وبغداد والموصل والبصرة ومدن العراق الأخرى تتجاور الأديان والمذاهب، محال مختلطة ومحال مغلقة لدين أو مذهب، ولم يؤثر في سلامة هذا التجاوز غير الموقف السياسي والتعصب الأعمى باسم الدين، ذلك ما سنراه من متابعة الاضطهادات الدينية والمذهبية، وخلا ذلك فالأديان والمذاهب كافة لديها فسحة من التسامح، قد تضيق وتتسع، وبالنتيجة لم يصل الأمر إلى إلغاء الآخر.